عمران و الرصاصة الذهبية

أحمد بن ماجد

DAR PAGES

عمران

ⓒ دار صفحات كتاب للنشر و التوزيع ، ١٤٤٦هـ

ماجد ، احمد بن
عمران. / احمد بن ماجد - ط١. .- الاحساء ، ١٤٤٦هـ
٢٢٦ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٧١٧٨
ردمك: ٤-٣٢-٨٤٧٥-٦٠٣-٩٧٨

دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع

للتواصل مع الدار:
رقم الجوال: 0556902621
الايميل: darpagesbook@gmail.com
الموقع الإلكتروني: darpagasbook.com
حسابات التواصل: dar_pages_book

DAR PAGES BOOK

الحقوق محفوظة: لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات و الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

عمران

أحمد بن ماجد

الطبعة الثانية

٢٠٢٥م-١٤٤٦هـ

(عمران)

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

@N_BHS2

مصر، وتحديدًا في القاهرة محافظة الجيزة، عام ٢٠٢٢

الساعة: ٦:٣٩ فجرًا

في أحد أحياء الجيزة الشعبيّة، حيث الأزقَّة الضيِّقة والمنازل العتيقة، كانت شمسُ الصباحِ تقتحمُ النوافذَ الصغيرةَ وتُلقي بأشعّتِها على الجدرانِ المتشقِّقة. داخل شقَّةٍ متواضعةٍ في عمارةٍ سكنيَّةٍ قديمة، ارتفع صوتُ امرأةٍ مسنّةٍ من المطبخِ وهي تنادي بغضبٍ مَمزوجٍ بالحنان:

"استيقظ يا عمران! لقد تأخَّرتَ عن العمل! الناس لا ينتظرونك على الطريق ويتوسَّلون لك أن يستقلّوا سيَّارتك! عليك أن تذهب الآن، فالمنطقةُ مليئةٌ بسيارات الأجرة التي تجوبُ الشوارع، وهذا وقتُ الذّروة!".

من الغرفةِ المجاورة، خرج صوتُ شابٍّ وهو يردُّ بِنَبرَة ساخرة:

"وقتُ الذروة! نعم، يجب أن أستغلّه جيدًا حتى نستطيع أن نتناول العشاءَ الليلة، أليس كذلك؟".

ظهر الشاب عمران من غرفتِه، شابٌّ في العشرين من عمرِه، كان يرتدي قميصًا بسيطًا وبنطالًا مُهترئًا قليلًا عند الركبة. جلس على كرسيٍّ خشبيٍّ قديمٍ في الصالةِ وهو يضيفُ بِنَبرَة مازحة:

"لقد حفظتُ تلك المقطوعةَ التي تردّدينها كلَّ صباحٍ يا أمي. ألم تملّي من تكرارِها؟!".

مسحت الأمُّ يديْها بمئزرِها وهي تقف عند الباب وتقول بحزم:

"أنا أكرّرُها لمصلحتك، يا بُنيَّ. أنتَ المسؤولُ عنّا الآن، أنا وإخوتك، بعد أن اختفى والدُك دون أن يتركَ لنا شيئًا نعيش عليه".

توقّف عمران للحظة، نظر إلى الأرض وهو يهمس لنفسه:

"بل لقد تركَ لنا الكثير... الكثير يا أمي".

رفعتِ الأمُّ حاجبيها باستغرابٍ وسألته:

"هل قلتَ شيئًا يا بني؟!".

رفع عمران رأسه بسرعة وردَّ بِنَبرَة ساخِرَة:

"كيف تقولين إنّ والدي لم يترك لنا شيئًا؟ لقد ترك لنا الأسدَ الأسود يا أمي!".

قطّبتِ الأمُّ حاجبَيْها وردّت باستياء:

"هل تقصدُ تلك الخردة المركونة أسفل العمارة؟".

ابتسم عمران ابتسامةً ساخرةً وهو يهزُّ رأسه:

"لو سمحتِ يا أمي، لا أسمح لكِ أن تتحدّثي عن سيارتي العزيزةِ بهذا الشكل. إنَّها ليست مجرَّدَ سيارة، إنَّها جزءٌ منِّي!".

ردَّتِ الأمُّ وهي تضَعُ يديها على خاصرتها:

"جزءٌ منك! هذه السيارة بالكاد تسير، وكلّما خرجتَ بها، عدتَ لي وأنتَ تشكو من الأعطال! لو كان والدُك موجودًا الآن، لما سمح لك بقيادتِها!".

نهض عمران من كرسيِّه وتوجَّه نحو الباب وهو يقول بابتسامةٍ واثقة:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

"لو كان أبي هنا، لقال لكِ إنّ هذه السيارة ليست مجرّد خُردة، إنَّها مفتاحُ المستقبل. سأريكِ يومًا ما -يا أمي- ما يمكن لهذه السيَّارة أن تفعله".

في أسفل العمارة

توقّف عمران أمام سيارة سوداء، مَركونة في الزاوية، مغبرّة بفعل الأجواء، لكنَّها تحمل هالةً غريبةً من الهيبة. كانت سيارة أجرة من طرازٍ قديم، سوداءَ اللون، بطلاءٍ تآكلت أطرافُه، لكنَّها رغم ذلك كانت تحتفظُ بجاذبيةٍ غير مبرّرة...

مسح عمران الغبارَ عن غطاءِ المحرّك وهو يهمس:

"أعلم أنَّك تحملين أسرارًا يا أسدي الأسود... لكنِّي لن أستعجلَ الأمور، كلُّ شيءٍ في وقته".

أدار المفتاح، ومع أوّل محاولة، أصدر المحرّك صوتًا عميقًا يشبه الزئير. ابتسم عمران وقال:

"تمام، تمام... ها نحن جاهزون ليوم جديد".

انطلقَ عمران بسيّارته في شوارعِ الجيزة، يجوبُ الأزقّة الضيّقة بحثًا عن الركاب. كانت المنطقة تعجُّ بالحركة، والباعة المتجوِّلون يعرضون بضائعهم على الأرصفة، فيما كانت السيارات تتسابقُ للحصولِ على زبائن في ذلك الوقتِ الصباحيّ المزدحم. كان عمران يتنقل بسرعةٍ بين الشوارعِ المزدحمة، عينُه تراقبُ الحشودَ بحثًا عن أيّ زبون يمكنه أن يتوقف في سيارته السوداء الفاخرة.

بينما كان يمرُّ من أحد الشوارع، لمح رجلًا مسنًا يرتدي بدلةً قديمة، يظهر عليه التعبُ والإرهاق. أوقف عمران سيارته بجانبه وفتح النافذة قائلًا:

"إلى أين يا عم؟".

نظر الرجل إلى السيارة ثم إلى عمران، وأخذ وقتًا في التفكير قبل أن يجيب بصوتٍ ضعيف:

"إلى منطقة الهرم، إذا كنت تستطيع".

ابتسم عمران وقال:

"بالطبع، اجلس، سنصل هناك قريبًا".

ما إن أغلقَ الرجلُ البابَ حتى شعر عمران بشيء مختلف. كانت همسات خفيفة، غير مسموعة لأيّ شخصٍ آخر، تخرج من داخل السيارة. عرف عمران أنها اللحظة التي تبدأ فيها السيارة بالكشف له عن معلومات عن هذا الراكب.

همسات السيارة بدأت في أذنه، خافتة ولكنها واضحة:

"الرجل يعاني من مشكلةٍ صِحِّيَّةٍ في قلبه. يجب أن تُنبّهه".

ابتسم عمران وهو يراقب الرجل في المِرآة الداخليّة للسيارة، وهو يلاحظ العلامات البسيطة على وجهِه التي تكشف عن تعَب.

كان يعرفُ أنَّ عليه أن يتصرّفَ بحذر، فالسيارة دائمًا تمنحه هذه الإشارات التي لا يستطيع أحدٌ سواه سماعَها. لم يكن مستغربًا، فهو قد اعتاد على هذه الظاهرة الغريبة منذ أن امتلك السيارة، بل أصبح يعتمدُ عليها في توجيه نصائحه للرّكاب.

قال عمران وهو يراقب الرجل بصمت:

"هل تشعر بأي تعب، يا عم؟".

رفع الرجل رأسه ببطء وقال:

"في الحقيقة، نعم. أشعر بشيءٍ غريبٍ في صدري. ربما لدي مشكلة في القلب، لكنني لا أريد أن أزعجَ أحدًا".

ابتسم عمران وقال بِلُطف:

"لا تستخف بهذا، يا عم. يجب أن تراجع الطبيب فورًا. صِحّتك أهم".

نظر إليه الرجلُ في دهشة، لكن عمران تجاهل نظراته واكتفى بتوجيه نَصيحته. همساتُ السيارة كانت ما دفعته لتوجيه هذا التحذير، ولم يكن ليخطئ.

بينما وصلا إلى منطقة الهرم، أوقف عمران السيارة وقال:

"ها نحن ذا، ولكن تذكَّر نصيحتي. يجب أن ترى الطبيب".

نزل الرجل من السيارة وقال له وهو يلتفت إليه:

"أنت... كيف عرفت؟!".

ابتسم عمران وقال ببساطة:

"أنا فقط أقول لك ما أراه. صحّتك أهم من أي شيء آخر".

نظر الرجل إلى عمران بصمت، ثم غادر، بينما بقي عمران في سيارته مستمعًا للهمسات التي تبدأ في العودة مجددًا.

كانت السيارة تصدر همساتٍ غير مرئيّة، لكن بالنسبة لعمران كانت كالعلامات الإرشادية.. همسات بدأت تمنحه معلوماتٍ غيرَ واضحةٍ للآخرين، وكانت تجعله يتصرّفُ بحذرٍ في المواقف اليومية. وكلما مر الوقت، كان يشعر أن هذه الميزة التي يمتلكها كانت أكثر من مجرّد قدرةٍ خارقة؛ كانت مسؤوليته.

ابتسم قائلًا في نفسه: "يبدو أن اليوم سيكون مليئًا بالمفاجآت!".

ثم أدار عجلة القيادة وتابع سيره، منتظرًا الركاب الجدد، بينما تتدفّق الهمسات داخل أذنه...

بينما كان عمران يقود سيارته عبرَ الشوارعِ الضيقةِ في الجيزة، شعر بشيءٍ غريبٍ يطغى على الأجواء. كانتِ الهمساتُ تزداد في تردُّدِها، وكأن السيارة كانت تحاول تحذيرَه من أمرٍ ما، وتمنحه إشاراتٍ خفيّة أكثر عن الركاب الذين سيركبون معه.

ومع مرورِ الوقت، لاحظ عمران أن هناك شيئًا مميزًا بشأنِ الركابِ الذين يركبون سيارته.. فقد كانت السيارة، كما يبدو، تعرف أكثر مما يجب عنهم، وكأنها تحمل أسرارًا مخفيّةً عن العالم. لم يكن ليصدّقُ هذا كلّه، ولكنه كان يعي جيدًا أنه لا يستطيع الهروب من هذه الحقيقة...

قبل أن يصل إلى الزبون التالي، سمعَ همسات سيارة تتسلّل إلى عقله فجأة:

"الرجل القادم، لا تظن أنه مجرد زبون عادي.. بل سيُغيِّر مسارَ حياتك".

ارتبكَ عمران للحظة، وأخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يراقبَ الطريقَ مجددًا.. وسرعان ما ظهرَ أمامه رجلٌ بدينٌ وقصيرُ القامة، يرتدي معطفًا أسودَ طويلًا وتَظهر عليه علاماتُ الثراء...

تقدّم الرجلُ نحو سيارته بخطواتٍ ثابتة وكأنّ شيئًا ما يجذبه نحوها. أوقف عمران السيارة وأشار له بالركوب.

دخل الرجل السيارة وصمت لوهلة، فيما استمر صوتُ الهمسات في أذن عمران..

فتح الرجلُ الغنيُّ بابَ السيارةِ وجلسَ في المقعدِ الخلفيّ، لاحظ عمران على الفورِ ملامحَ وجهه الواثقة ونظراته التي لا تنظر إلى الناس، بل تخترقهم بتكبُّرٍ دفين. كانت ملابسه اللامعة وساعته الذهبية كافية لتعلن أنه رجلٌ يعيشُ في عالمٍ مختلفٍ عن عالم عمران تمامًا.

ولكن قبل أن يبدأ الرجل بالكلام، همست السيارة في أذن عمران، بصوتٍ عميقٍ وحازم:

"قُل له: لا تبع عين حورس!".

عمران تجمَّد للحظة رغم أنه اعتاد همسات السيارة التي أنقذته في مواقف كثيرة، إلا أن هذه المرة كانت مختلفة...

هذه الكلمات بدت وكأنّها تحمِل معنى أكبر ممّا يفهمه، ومع ذلك، لم يستطع مقاومة الأمر. التفت قليلًا نحو المرآة الداخلية وقال بصوتٍ خافت:

"لا تبع عين حورس!".

في لحظة، تحوّلتْ ملامحُ الرجل الغني من الهدوءِ إلى الصدمة، حدّق في عمران بعينين ملأتهما الريبة والخوف، ثم سأله بصوتٍ مرتجف:

"من أنت؟! كاهن؟ أم ساحر؟ كيف عرفت عن عين حورس؟".

تردَّد عمران للحظة، ثم قرّر الصمت. لم يكن يريد الخوض في تفاصيل لا يفهمها بنفسه لكن الرجل لم يستسلم بسهولة، وأخذ يلحُّ عليه:

"أخبرني! لا يمكنُ أن تعرفَ هذا من فراغ! هل أنت من رجال الأمن أم أنَّك مشعوذ؟!".

عمران ظل ساكتًا، يتجنّب النظرَ إلى الخلف. وفي النهاية، أخرج الرجلُ الغني رزمةً من النقود بحركةٍ سريعة وألقاها في حضنِ عمران، كان المبلغ كبيرًا لدرجة جعلت أنفاس عمران تتوقف للحظة. وأخرج الرجل أيضًا بطاقةَ عملٍ أنيقة ووضعها على مسند المرتبة بعد أن نزل، وقال بِنَبرَة مليئةٍ بالإغراءِ والتهديد:

"هذا هو رقمي. إذا أردت تغيير حياتك البائسة، تواصل معي. يمكنني أن أجعلك غنيًا، كل يوم ستكون لك رزمة مثل هذه، لكن بالدولار، وليس بالجنيه... لديك حتى منتصف الليل لتقرر".

جلس عمران في سيارته بعد رحيل الرجل، غارقًا في دوَّامةٍ من الأفكار.

كانت الرُّزْمَة في حضنه كأنّها وزنًا ثقيلًا يضغط على روحه، أمسكها بيدين مرتجفتين، وعيناه مِلْأهما الحيرة لأول مرة يشعر بأن الحل لكلّ مشاكله بين يديه، ولكن الثمن قد يكون أغلى ممّا يستطيع تحمله...

كانت صورة أُمِّه المرهقة تلوح في ذهنه، وهي جالسة في زاوية الشقة المتواضعة التي يعيشون فيها، عاجزةً عن العمل، وصورة إخوته الصغار، الذين كانوا يذهبون للنوم وهم جياعٌ أحيانًا، تُحطّم قلبه. هذا المال يمكن أن يُغيّر حياتهم جميعًا...

ولكن في المقابل، كان يعلم أن الدخول في هذا العالم قد يعني التورط في أمورٍ لا رجعة فيها. وبينما كان الصراع الداخلي ينهش روحه، وجد نفسه دون وعي يُخرِج البطاقة التي اعتلاها اسم (فاروق بيك) ويسجِّل الرقم...

"فاروق بيك... أنا معك".

عنـد منتصف الليل، وصل عمران إلى القصـر الذي حـدّده فاروق بيك.

كان القصر أشبه بقلعةٍ من قصص الخيال. الأضواء التي تزيّنه، الحدائق المحيطة به، والبوابة المعدنية الكبيرة، كل شيءٍ فيه يعلن عن ثراءٍ فاحش.

اقترب عمران بسيارته المتواضعة نحو الحارس، وأخبره باسمه. لم يبدُ الحارس مقتنعًا، فاتصل بفاروق بيك للتأكد. جاء الرد سريعًا، وبعد أن علم فاروق أن السيارة سوداء، أذنَ له بالدخول...

داخل القصر، كان كل شيءٍ ينضح بالترَف. الأرضية الرخامية تلمع تحت أقدام عمران، واللوحات المعلقة على الجدران تبدو وكأنها كنوزٌ تاريخية. عندما وصل إلى غرفة المكتب، استقبله فاروق بيك بابتسامةٍ باردة...

"أهلًا بك يا عمران. اجلس".

جلس عمران بتوترٍ على الكرسي المقابل لمكتب فاروق، الذي كان مصنوعًا من الذهب الخالص ومزينًا بنقوشٍ فرعونية. خلفه، كانت هناك تماثيل ضخمة للمصريين القدماء، وكأنها تحرس المكان.

"ماذا تشرب؟". سأله فاروق.

"أي شيء... شاي مثلًا".

وخلال ثوانٍ، تقدم الخادم وسكب كوب الشاي لعمران.

بعد أن ارتشف الشاي، بدأ فاروق يتحدث بِنَبرَة هادئة، لكنها تحمل الكثير من الغموض:

"أنا أُدير شبكةً خاصة بتجارة الآثار. نحن نعمل بصمتٍ وبسريةٍ تامة. لكنك أثرت دهشتي الليلة... كيف عرفت عن عين حورس؟".

ابتلعَ عمران ريقَه، وحاول أن يبدو واثقًا، وقال:

"الأمور ليست بهذه البساطة، يا فاروق بيك. هناك أشياء تحدث... قد لا تفهمها".

"أوه، أريد أن أفهم. أخبرني، كيف يمكنك مساعدتي؟".

تردد عمران، ثم قال:

"السرّ ليس بي... بل في السيارة التي معي. هي التي تهمِس لي بالأسرار".

انفجر فاروق بيك ضاحكًا، لكنه سرعان ما تمالك نفسه عندما رأى الجدية في عيني عمران. قال بابتسامةٍ ساخرة:

"سيارتك؟ حسنًا، لدي فكرة. سأجعلك سائقي الخاص، وسوف أجعل الاجتماعات تُعقد داخل سيّارتك، وسأجدّدها لتبدو أفخم وتليق بي. وفي المقابل، ستساعدني في كشف الخونة وإيجاد الآثار المَدفونة".

رغم قلق عمران، لم يستطع إخفاء ابتسامته. فكرة تجديد السيارة المتهالكة والحياة المزخرفة التي سوف يعيشها بدت وكأنها فرصةٌ ذهبيةٌ لا تُفوَّت...

وافق على العرض بسرعة، وهو لا يعلم أن هذه الخطوة ستفتح عليه أبوابًا من الغموض والخطر لم يتخيّلها يومًا.

(الفصل الثاني)
(الرّصاصةُ الذّهبية)

في القصر الفخم، بعد الاتفاق الذي عقده عمران مع فاروق بيك، بدأت أولى خطواته في عالم مليء بالغموض والمخاطر. لكن الغموض الذي يحيط بفاروق بيك لم يكن الشيء الوحيد الذي سيُلفت نظر عمران هذه الليلة.

فاروق بيك، بصوتٍ هادئٍ لكن مليءٍ بالحزم، قال:

"سنبدأ العمل غدًا، أريدك أن تأتي إلى القصر بعد صلاة العصر مباشرة. لدي اجتماع مع أحد أكبر تجّار الآثار الأوروبيين. لديّ شكوك بأنه يخفي شيئًا عني... أعتقد أنه يتعامل مع منظمة منافسة. هؤلاء أعدائي، وأريدك أن تتأكد من ذلك بنفسك".

شعر عمران بتوتُّرٍ شديد. كان يعلم أن هذا العمل ليس عاديًا، وأنه على وشك التورّط في أمور أكبر منه. لكنه أومَأَ برأسه وقال:

"حسنًا، لك ذلك. ولكن الآن يجب عليّ الرحيل. لقد تأخرت على عائلتي، وأريد أن أذهب إليهم وأبشرهم أنني حصلت على وظيفة جديدة".

ضرب فاروق بيك بيده على الطاولة برفق، لكنه جعل صوته حازمًا:

"اسمعني جيدًا، أيُّها الشاب، عملي معك سيكون في منتهى السريَّة. إذا أردتَ أن تخبر أحدًا عن عملك معي، أخبرهم أنني أتاجر في العقار. هذا هو الأمر المعروف عني للعامة، ولا شيء غير ذلك".

ابتلعَ عمران ريقه وقال بتوتر:

"حسنًا... سأبقي الأمر سِرّيًا قدر استطاعتي".

وقف عمران وهمَّ بالرحيل، لكنه سمع صوت فاروق بيك يُناديه من خلفه، وعلى وجهه ابتسامة خبيثة:

"لقد نسيتَ شيئًا يا عمران!".

التفت عمران وسأل بحذر:

"ماذا؟!".

فتح فاروق أحد أدراج مكتبه، وأخرج رزمة ضخمة من الدولارات.. وضعها على الطاولة أمام عمران وقال:

"هذه بمناسبة الاتفاق بيننا. والآن، سلّمني مفتاح السيارة، لكي نبدأ بتَجديدها".

نظر عمران إلى رزمة الدولارات بذهول. كانت أكبر مبلغ يراه في حياته. أخذ المال بيدين مرتجفتين، وعقله بدأ ينسج أحلامًا عن العشاء الفاخر الذي سيجلبه لعائلته الليلة، وكيف ستعود الثلاجات الخاوية إلى الامتلاء، وكيف ستغمر السعادة وجوه أمه وإخوته... لكن سرحانه قُطع فجأة بصوت فاروق بيك:

"إذا سلّمتُك السيارة الآن، كيف سأعود إلى بيتي الليلة؟!".

ابتسم فاروق بيك ابتسامة خبيثة، ثم صفّق بيديه ونادى:

"إلياس! تعال إلى هنا".

دخل إلياس إلى الغرفة بهدوء. كان رجلًا في منتصف الثلاثينيات، طويل القامة، ذا بنيَة قويّة. بشرته سمراء، وملامحه حادّة، تتوسط وجهه عينان حادتان تحملان مزيجًا من الغموض والبرود. كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة، تبدو وكأنها مصمَّمةً خصّيصًا له. مِشيتُه كانت واثقة وصوته منخفضًا، لكنه يحمل هيبة واضحة...

"نعم، بيك؟". قال إلياس بِنَبرَة هادئة.

"خذ عمران إلى المرآب الخاص بي، ودعه يختار السيارة التي يريدها ليستخدمها حتى ننتهي من تجديد سيارته".

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

ثم التفت إلى عمران وأكمل:

"لا تتأخر غدًا، الموعد مهمٌ للغاية".

أومأ عمران برأسه موافقًا، وخرج مع إلياس.

عندما وصل عمران إلى المرآب، اتسعت عيناه من الدهشة. كان المرآب أشبه بمعرض للسيارات الفاخرة. الصّفوف المنتظمة من السيارات اللامعة تضمَّنت أسماء كبرى شركات السيارات: رولز رويس، لامبرغيني، فيراري، ومرسيدس، وكلها تبدو جديدة تمامًا. كل سيارة بدت كأنها تنتمي لعالمٍ آخرٍ بعيدٍ عن عالمه الفقير.

ابتلعَ عمران ريقَه وقال بصوتٍ خافت:

"هل... هل كلها مِلك فاروق بيك؟!".

أجاب إلياس دون أن يلتفت إليه:

"كل سيارة هنا لها قصة. فاروق بيك لا يحتفظ إلا بالسيارات التي لها قيمة، أما السيارات العادية، فلا مكان لها هنا".

شعر عمران أن في كلمات إلياس مَغزى أعمق، فسأله بحذر:

"هل تعمل مع فاروق بيك منذ فترة طويلة؟".

ابتسم إلياس ابتسامة صغيرة، لكنها بدت خالية من الدفء:

"يمكنك القول إنني معه منذ زمنٍ يكفي لأنْ أعرف أنَّ الأسـئلة الكثيرة ليست فكرة جيدة!!".

شـعر عمران بالبرودة في نبرة إلياس، لكنه لم يسـتطع كبحَ فضـوله وسأله:

"وهل عمله... خطير؟".

توقف إلياس ونظر إلى عمران بعينين جامدتين وقال:

"إذا كنتَ قد وافقت على العملِ معه، فهذا يعني أنك مستعد لتحمُّلِ العواقب. نصيحتي لك، يا عمران، هي أن تركز فقط على ما يُطلب منك، ولا تحاول البحث عن إجابات لأسئلةٍ قد لا تعجبك إجاباتها".

ابتلعَ عمران كلماته، وشعر بوخزةٍ خفيفة من القلق.. لكنه أومَأ برأسه وقال:

"حسنًا، سأختار السيارة".

اختار عمران سيارة مرسيدس سوداء أنيقة، بدت وكأنها تناسبه أكثر من السيارات الفارهة الأخرى. قاد السيارةَ الجديدة بحذرٍ شديد وهو

يغادرُ القصر، وفي رأسه ألف فكرة تدور حول إلياس، وفاروق بيك، وما ينتظره غدًا.

كانت تلك الليلة بدايةُ رحلةٍ جديدةٍ لعمران، رحلة ستجعله يكتشف أشياء لم يكن يتخيّلها عن نفسه، وعن العالم المظلم الذي دخله بقدميه..

عاد عمران إلى منزله تلك الليلة، يقود المرسيدس السوداء بحذر شديد، وكأنها كنز ثمين يخشى خدشه. عندما توقف أمام البيت المتواضع، انبهرَ إخوته الصغار بالسيارة اللامعة، واندفعوا نحوها يلمسونها بفرح ودهشة. كانت والدته تقف على عتبة الباب، تحملق في المشهد غير مصدقة أن ابنها عاد بسيارة فارهة كهذه.

داخل المنزل، كانت السعادة تغمر الجميع.

جلس عمران مع عائلته، يراقب وجوههم وهم يتناولون العشاء الفاخر الذي جلبه لهم. امتلأت الثلاجة بالطعام لأول مرة منذ أعوام، ووجوه إخوته الصغيرة تُشرِقُ بالسعادة. والدته، التي كانت تشعر بالقلق عليه طوال الوقت، بدت أكثر اطمئنانًا، رغم أنها لم تتوقف عن سؤاله:

"يا عمران، من أين لك هذا؟ هل حصلت على وظيفة محترمة أخيرًا؟!".

ابتسم عمران وهو يحاول طمأنتها:

"نعم يا أمي، وظيفة جديدة لكنها ليست سهلة. سأعمل مع رجل غني كتاجِر في العقارات. سيارته التي كنت أقودها اليوم كانت جزءًا من العمل".

رغم الكلمات التي بدت مطمْئِنَة، كان في قلب عمران قلقٌ من أنه يخفي عنها الحقيقة لكنه أقنع نفسه أن هذا السرّ ضروري للحفاظ على سلامة عائلته.

في منتصف الليل، وبينما كان عمران يسترخي في سريره، رنّ هاتفه. على الشاشة ظهر رقمٌ غريب.

أجاب بصوتٍ متعب:

"مرحبًا..".

جاء صوت هادئٌ لكنه يحمل نبرةَ جِدِّيَّة:

"لا تنسَ موعدك غدًا مع فاروق بيك. كن في القصر بعد صلاة العصر مباشرة. تأخرُك غير مقبول".

أغلق عمران الهاتف وقد علِمَ أن المتصل إلياس. استلقى على سريره يشعر بثقلِ ما ينتظره. كان يعلم أن اليوم التالي سيُغيّر الكثير في حياته.

في اليوم التالي، وعندما دقت الساعة الرابعة عصرًا، كان عمران يقف أمام بوابة القصر الفخم مرّة أخرى. لكنه لم يكن يتوقّع المفاجأة التي تنتظره...

عندما قاده أحد العاملين في القصر إلى المرآب، وجد سيارته المتهالكة التي قادها لسنوات قد تحوَّلت إلى تُحفَةٍ فنية... كانت السيارة سوداء لامعة، مزودة بمصابيحِ أماميةٍ حديثة، وإطارات برَّاقة، ونظامٍ داخلي فاخرٍ يشبه طراز السيارات الأكثر حداثة.

اقترب عمران منها ببطء، وعيناه تتفحّصان كل التفاصيل. فتح الباب ودخل إلى المقصورة التي أصبحت مزودة بمقاعدِ جِلْديَّة فاخرة، وشاشات حديثة، ومقودٍ مغطّى بجلد فاخر. كان كل شيءٍ فيها يبدو وكأنه قُصد أن يكون مثيرًا للإعجاب..

نظر عمران إلى العامل الذي كان يقف بجانبه وقال بدهشة:

"هل... هل هذه فعلًا سيارتي؟!".

ابتسم العامل وقال:

"فاروق بيك أرادها أن تكون سيارة تليق بعمله، وبمن يعمل معه.. إنها الآن رمزًا للفخامةِ والقوة".

جلس عمران خلف المقود، ووضع يده على عجلة القيادة، وكأنَّ السيارة أصبحت جزءًا منه. في تلك اللحظة، شعر باندفاع من الحماس، وكأنه على وشكِ الدخول إلى عالمٍ مختلفٍ تمامًا عمّا عرفه سابقًا.

قاد عمران السيارة الفاخرة إلى المدخل الرئيسي للقصر، حيثُ كان فاروق بيك ينتظره في غرفة المكتب. عند دخوله، وجده يجلس بهدوء على كرسيّه الذهبي المعتاد، وبجواره كان إلياس واقفًا كتمثال.

قال فاروق بيك بابتسامةٍ صغيرة:

"يبدو أنَّكَ أحببتَ السيارة بعد التجديد! والآن، اجلس.. لدينا اجتماع مهم جدًا".

جلس عمران وهو يحاول إخفاء تَوتّره. سأل فاروق:

"من سأقابل اليوم؟!".

أجاب فاروق، وعيناه تحملان نظرة غامضة:

"تاجر آثار أوروبي يزعم أنه صديقي، لكنه قد يكون عدوي الأكبر... أريدك أن تراقب كل كلمة يقولها، وأن تستخدم موهبتك الخاصة، لتكتشف ما يخفيه عني".

ابتلعَ عمران ريقَه وقال بتردد:

"لكن... كيف سأفعل ذلك؟!".

ردَّ فاروق بيك بابتسامةٍ مريبة:

"سيارتك ستساعدك، أليس كذلك؟! لا تقلق.. فقط افعل ما تُجيد فعله".

في تلك اللحظة، شعر عمران أنَّ المسؤولية التي وُضعت على عاتقه أكبر مما توقَّع...

كانت الساعة تقترب من الخامسة عصرًا، وكانت الشمس ترسل أشعتها البرتقالية على أطراف القصر الفخم... عمران كان يجلسُ في سيارته الجديدة الفاخرة، ينتظرُ بفارغ الصبر تعليمات فاروق بيك لبدء الاجتماع. لم يكن يُدرِكُ أنّ هذه اللحظة ستكون بداية اختبارٍ حقيقيٍّ له ولموهبته...

دخل فاروق بيك السيارة من الباب الخلفي، مرتديًا بدلةً داكنة أنيقة، وربطة عُنقه المميزة التي تحمل نقوشًا فرعونية صغيرة. جلس براحة وثقة، بينما تبعه رجل أوروبي في منتصف الخمسينيات بشعرٍ رمادي مرتّبٍ وعينين حادتين. كان الرجل يرتدي معطفًا أسود من أفخرِ أنواع القماش، وساعة ذهبية تتلألأ في معصمه.

فاروق بيك، بابتسامة مصطنعة، أشار إلى عمران دون أن ينظر إليه وقال للأوروبي:

"هذا سائقي الجديد، عمران.. يمكنك أن تشعر بالراحة هنا، فلا أحد يمكنه سماع حديثنا خارج هذه السيارة".

الأوروبي نظر إلى عمران ببرود ثم تجاهله تمامًا، وجلس بجوار فاروق.

"حسنًا، فاروق، لنأخذ جولة قصيرة ونتحدث عن الأعمال".

أدار عمران المحرك، وتحرك بالسيارة بهدوء على الطريق المحيط بالقصر، محاولًا التركيز على القيادة بينما أذناه تلتقطان الحديث بين الرجلين. لكن قبل أن يُقال شيءٌ مهم، سمع عمران تلك الهَمسَة المألوفة... همسة السيارة في أذنه:

"قل له:

ماذا عن الشحنة التي أرسلتها الأسبوع الماضي؟ هل وصلَت بأمان؟".

لم يتحدث عمران، لكنه فهم ما كان عليه فعله. لم يكن من المفترض أن يوجِّه الحديث مباشرة إلى الرجل الأوروبي، بل عليه فقط نقل المعلومة التي همست بها السيارة إلى فاروق بيك.

أخذ عمران هاتفه بسرعة وأرسل رسالة نصيّة إلى فاروق بيك:

"السيارة تهمس لي الآن. تقول لي أن أسأل الرجل عن الشحنة التي أرسلها الأسبوع الماضي. هل ترغب أن أقول له ذلك؟!".

بعد لحظات، ارتفعت ابتسامة خفيفة على وجه فاروق بيك عند قراءة الرسالة.. أرسل له ردًا مختصرًا:

"حسنًا سوف أسأله عن الشحنة، ولكن لا تكشف عن أي نوايا. دعني أتعامل مع ذلك".

عمران أومأ برأسه، وأعاد تركيزه على القيادة بينما كان فاروق بيك يبدأ في الحوار مع الرجل الأوروبي في المقعد الخلفي.

فاروق بيك، الذي كان يراقب عن كثب، نظر إلى الرجل الأوروبي وقال بهدوء:

"أخبرني، هل وصلت الشحنة التي أرسلتها الأسبوع الماضي بأمان؟!".

الرجل الأوروبي رفع حاجبيه وأجاب بسرعة:

"نعم، الشحنة وصلت بأمان. لا داعي للقلق. الأمور تسير كما هو مخطّط لها".

لكن فاروق بيك لم يكن راضيًا عن هذا الرد. ابتسم ابتسامة صغيرة، ثم قال:

"أعلم أن الأمور قد لا تكون دائمًا كما تبدو، وأنا لا أحبّ المفاجآت ولكن إذا كانت هناك أي تأخيرات، أريد أن أعرف؟!".

كانت هناك لحظة من التوتر، حيث كان الرجل الأوروبي يحاول أن يحافظ على هدوئه، لكن فاروق بيك كان قد شعر بشيءٍ غير طبيعيٍّ في ردوده. وبعد لحظة صمت، تحدث فاروق بيك مجددًا قائلًا:

"أنا فقط أتأكّد من أنّ كلَّ شيءٍ يسير بشكلٍ صحيح. لا أحد يحب أن يكون متورطًا في أشياء لا يدري عنها شيئًا".

الرجل الأوروبي كان واضحًا في مُحاولته إخفاء أي قلق. قال بسرعة:

"بالطبع، كل شيء على ما يرام".

ولكن فاروق بيك لم يكن مقتنعًا. كانت تلك اللحظة كافية له ليعلم أن هناك شيئًا ما كان يُخفيه الرجل الأوروبي. بعد أن انتهى الحديث بينهما، أشار فاروق بيك بعينه إلى عمران. فهِمَ الأخير ما يُطلب منه:

الاستمرار في القيادة دون التدخّل في الحديث!

وفجأة دون سابق إنذار همست السيارة لعمران:

"لقد تأخّرتِ الشحنةُ لأنهم أعطوها لعصابة الهرم المقلوب لتصنع منها نسخًا مقلّدة من الآثار للإيقاع بفاروق".

شعر عمران بقشعريرةٍ تجتاح جسده. كيف يمكن لهذه السيارة أن تعرف كل هذه التفاصيل؟! ورغم صدمته لم يكن هناك وقت للتفكير، فقد كان عليه أن يبلغ فاروق بيك فورًا. أمسك بهاتفه وأرسل رسالة نصية إلى فاروق، محتواها:

"فاروق بيك، السيارة همسَت لي أن الشحنة تأخرت لأن عصابة الهرم المقلوب أخذوها لتصنع نسخًا مُقلّدة للإيقاع بك".

كانت السيارة في هذه الأثناء مليئة بهدوء مشوب بالتوتر. نظر فاروق إلى شاشة هاتفه وقرأ الرسالة.

لوهلة، ظل صامتًا، ثم رفع عينيه نحو المرآة التي تعكس وجه الرجل الأوروبي الذي بجانبه. كانت ملامحه باردة، متحجرة، لكنه كان يُخبِّئ خلف هذا القناع عاصفة من الغضب.

بصوتٍ هادئ وبارد قال فاروق للأوروبي:

"إذَن، الشحنة لم تتأخر فقط بسبب النقل، بل لأنك تعاونت مع عصابة الهرم المقلوب، أليس كذلك؟! كنتم تخططون لبيع تماثيل مزوَّرة لي، صحيح؟".

الرجل الأوروبي ارتجفَ في مكانه. امتلأ وجهه بالعرق، وبدأ يفقد هدوءه. حاول التظاهر بالثبات، لكن صوته فضحه وهو يصرخ:

"هل تتّهمني بالخيانة يا فاروق بيك؟! هذه مجرد شكوك!".

ابتسم فاروق بسخرية خبيثة، وأخرج مسدسًا مطليًا بالذهب من جيبه، ثم وضع بداخله رصاصة ذهبية نظر إلى الرجل الأوروبي نظرةً جامدة وقال بصوت مخيف:

"أنا لا أشك، أنا أقطع الشك باليقين".

وما إن أنهى جملته حتى رفع مسدسه وصوّبه نحو رأس الرجل الأوروبي. وفي لحظة صادمة، ضغطَ على الزناد.

دوَّى صوت الطلقة داخل السيارة، وتبعها صوت الزجاج العاتم الذي تناثرت عليه الدماء. الرجل الأوروبي سقط في مكانه بلا حياة، بينما

ظل عمران جالسًا خلف المقود مذهولًا مما حدث للتو، يداه كانتا ترتجفان، وبدأ العرق يتصبب منه بغزارة.

صوت فاروق قطع الصمت وهو يقول لعمران ببرود:

"عد بنا إلى القصر!".

كان عمران في حالة صدمة تامة، لكن لم يكن لديه خيار سوى الإذعان. بدأ يقود السيارة، محاولًا ألّا ينظر إلى الخلف حيث الجثة ملقاة، والدماء متناثرة. كان قلبه ينبض بقوة، ويداه على عجلة القيادة ترتجفان.

"كيف وصلت إلى هذا الوضع؟". تساءل في نفسه، لكن عقله كان مشتتًا جدًا ليفكر بوضوح.

عندما وصلوا إلى بوابة القصر، كان إلياس في انتظارهم. فتح الباب لفاروق بيك الذي خرج من السيارة بهدوء وثقة، وكأنه لم ينهِ للتو حياةَ إنسان! أخذ فاروق يعدّل ربطة عنقه بعناية، ثم التفت إلى إلياس قائلًا بصوت حازم:

"نظف السيارة جيدًا، لا أريد أي بقعة دماء أن تبقى فيها. تأكد من أن كل شيء يعود كما كان...".

أومأ إلياس برأسه دون أن ينطق كلمة واحدة، ثم بدأ في التحرك لتنفيذ الأمر.

التفت فاروق بعد ذلك إلى عمران، الذي كان لا يزال جالسًا خلف عجلةِ القيادة، وجهه شاحب ويداه ترتجفان. قال له بصوتٍ هادئٍ لكنه مليءٍ بالسلطة:

"اجمع شتات نفسك يا عمران، أريدك في مكتبي خلال خمس دقائق. هناك أمر هام نحتاج إلى مُناقشته".

لم يستطع عمران سوى أن يومئ برأسه بالموافقة. خرج من السيارة ببطء، وقدماه بالكاد تحملانه، وتوجّه بخطوات ثقيلة نحو القصر، محاولًا استيعاب ما حدث للتو وما قد ينتظره في مكتب فاروق بيك..

عندما دخل عمران المكتب، استقبله مشهد بدا وكأنه من فيلم درامي شديد التوتر. الغرفة الفاخرة كانت مليئة برائحة دخان السجائر، وفاروق بيك يجلس خلف مكتبه المذهّب، يدخّنُ سيجارة من نوع فاخر. تعابير وجهه غاضبة، ويداه تحركان الهاتف بعصبية، وهو يصرخ بصوت عالٍ يملأ أرجاء الغرفة.

"لقد ختُم الشخص الخاطئ، أيّها الحُمّالة! هل تظنون أنكم تستطيعون الإفلات بهذا؟!".

وقف فاروق من كرسيِّه بغضب، وبدأ يسير ذهابًا وإيابًا خلف مكتبه، يمسك السيجارة بيدٍ والهاتف بالأخرى. لم ينتبه إلى دخول عمران الذي بقيَ واقفًا عند الباب مترددًا. شعر عمران أن الحرارة في الغرفة ليست من دخان السجائر فقط، بل من الغضب الذي كان يتطاير من فاروق نفسه.

فاروق، دون أن ينظر إليه مباشرة، أشار بيده إلى الكرسي أمام مكتبه وقال بصوت منخفض لكنه قاطع: "اجلس. انتظر!".

بهدوء وجلوس متردد، أخذ عمران مقعده أمام المكتب. كان يحاول تهدئة نبضات قلبه التي لم تتوقف عن الاضطراب منذ الحادثة في السيارة. جلس يراقب فاروق الذي واصل صُراخه على الطرف الآخر من المكالمة، بينما ملامح وجهه كانت تتحول من الغضب إلى ابتسامة خبيثة تدريجيًا. أخيرًا، تحدث فاروق بِنَبْرَة حازمةٍ إلى الشخص على الطرف الآخر قائلًا:

"نفّذ ما اتفقنا عليه. لا أريد أعذارًا، ولا مجالَ للتأخير. افعل ذلك الآن".

أنهى المكالمة بإغلاق الهاتف بعنف على سطح مكتبه، ثم جلس بسرعة على كرسيه الفخم، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته قبل أن يطفئها

في منفضة ذهبية على شكل تمثال فرعوني. رفع نظره إلى عمران، وقال بابتسامة مخيفة تحمل مزيجًا من الكبرياء والشر:

"الآن يا عمران، أريدك أن تشاهد بعينيك ما يحدث لأولئك الذين يجرؤون على خيانة فاروق بيك!".

مد يده إلى جهاز التحكم عن بُعد، وقام بتشغيل التلفاز الكبير المثبَّت على الجدار المقابل. جلس متكئًا إلى الوراء، واضعًا قدمًا فوق الأخرى، وبدأ يراقب الشاشة بنظرة المنتصر. كان عمران جالسًا على طرف الكرسي، يشعر بالاختناق من رائحة السجائر والرهبة من الموقف.

لم تمر سوى دقائق قليلة حتى قُطعت البرامج العادية وظهر شريط أحمر يحمل كلمة "عاجل". ظهرت مذيعة الأخبار بوجهٍ متوتر للغاية وهي تقول: "عاجل: اندلعت حرائق مفاجئة في ٣٦ مصنعًا للدواجن والبلاستيكات في عدة مناطق متفرقة. الحادثة تُثير الشكوك، والشرطة تعمل على التحقيق في الأسباب التي أدّت إلى هذه الكارثة".

كانت الصور تظهر على الشاشة: ألسِنة النار تلتهم المباني، سحب الدخان الكثيفة تغطي السماء، وأصوات سيارات الإطفاء والإسعاف تملأ المشهد.

بينما كانت المذيعة تتحدث، بدأ فاروق يضحك بصوت مرتفع، قهقهةً تفيض بالغرور والثقة. نظر إلى عمران الذي كان ينظر للشاشة بعينين متسعتين من الذهول، وقال بلهجةٍ مليئةٍ بالتكبر:

"هل رأيت هذا يا عمران؟ هذه المصانع تخصّ أولئك الحمقى الذين ظنوا أنهم يمكنهم خيانتي والتلاعب بي... أردت أن أرسل لهم رسالة واضحة: لا أحد يخون فاروق بيك ويُفلت بفعلته!!".

ابتلعَ عمران ريقه بصعوبة، وهو يشعر بالخوف الشديد. لم يكن يتوقع أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد. فاروق بيك لم يكن مجرد رجل غني وصاحب نفوذ قوي، بل كان مستعدًا لتدمير كل مَن يقف في طريقه.

أخذ فاروق نفسًا عميقًا وأطفأ الشاشة، ثم نظر إلى عمران نظرةً حادةً وقال بصوتٍ منخفضٍ لكنه مليء بالهَيمَنة:

"هذا هو عالمي، يا عمران. إذا كنت ستعمل معي، عليك أن تفهم شيئًا واحدًا: الولاء هو العملة الوحيدة التي أتعامل بها. كن وفيًا لي، ولن ترى إلا الخير. خُنّي... وستعرف أنك وقعت في يد من لا يرحم!!".

عمران لم ينطق بكلمة. كان يعلم أن أي تعليق قد يؤدي إلى نتائج لا يُحمد عقباها. فقط أومأ برأسه بخفّة، محاولًا إخفاء التوتر والرّهبة التي تعصف به..

وقف فاروق بيك من على مكتبه، وتوجه نحو عمران بخطوات بطيئة، وربت على كتفه بحركةٍ مليئةٍ بالثقةِ والهيمنة، ثم قال بصوتِه الهادئ ولكن الحازم:

"والآن يا عمران، بعد أن أثبتَّ جدارتك، حان الوقت لننتقل إلى المهمة التالية...".

عمران، الذي لم يكن قد استعاد توازنه بعد ممّا شاهده، نظر إلى فاروق بتوتر وسأل بصوت متردد:

"و... وماذا تكون تلك المهمة؟!".

ابتسم فاروق بيك ابتسامة خبيثة تحمل في طيّاتها الكثير من الغموض، وقال بهدوء:

"سنُخرج الكنوز التي ورثناها من أجدادنا الفراعنة".

صُدم عمران من حجم العبارة وخطورتها. التفت إليه قائلًا:

"وكيف سيتم ذلك؟".

عاد فاروق إلى مكتبه الفاخر، أشعل سيجارة أخرى، ونفث دخانها بهدوء، ثم استدار نحو خزانة سوداء كبيرة خلفه. أدخل رمزًا على لوحة إلكترونية صغيرة، وفتح باب الخزانة الذي أصدر صوتًا معدنيًا ثقيلًا.

أخرج ملفًا أسود ضخمًا، ووضعه على المكتب أمامه. فتحه بسرعة وبدأ يقلّب السجلّات والأوراق داخله بحركةٍ متقنة حتى عثر على مجموعة أوراق مشبوكة بمشبك معدني. دفعها نحو عمران وقال بابتسامة خبيثة:

"هذه الأوراق الثلاث ستختصر لك عالمي، يا عمران...".

مد عمران يده بتردد ليمسك بالأوراق، وبدأ يتصفحها ببطء. في الصفحة الأولى، وجد قائمة بأسماء عدة أشخاص، لكن الغريب أن الأسماء كانت مميزة بألوان مختلفة. بعض الأسماء مكتوبة باللون الأحمر، وبعضها بالأخضر، بينما الأغلب كان باللون الأصفر.

نظر عمران إلى فاروق بارتباك، فسأله بتردد:

"ما معنى الألوان؟!".

أجاب فاروق، وهو ينفث دخان سيجارته:

"الأحمر يُمثّل الخونة أو من يجب التخلّص منهم. الأخضر هم من يمكننا الوثوق بهم بشكل كامل. أما الأصفر فهم المتعاونون المؤقتون، الذين قد ينقلبون علينا في أي لحظة".

انتاب عمران شعورٌ بعدم الارتياح، لكنه استمر في تقليب الأوراق حتى وصل إلى الصفحة الثانية. هناك وجد خريطة بيانية معقدة توضح

علاقات بين عصابات مختلفة. في منتصف الخريطة كانت هناك تسمية واضحة: "عصابة الهرم المقلوب"، وتحتها اسمين متفرعين. في الطرف الآخر، كانت هناك تسمية أخرى: "عصابة إخناتون"، وأسفلها كان اسم "فاروق بيك" بارزًا، مع تدرج كبير من الأسماء تحته. أما في جانب آخر من الخريطة، فكانت هناك "عصابة رمسيس"، وأسفلها اسم فاروق بيك مجددًا مع اسم شخص آخر محدد باللون الأحمر، بالإضافة إلى تدرّج كبير من الأسماء المرتبطة.

رفع عمران عينيه نحو فاروق بيك وسأله بصوت مرتعش:

"ما هذا كله؟".

أجاب فاروق بابتسامة باردة:

"هذا هو النظام، يا عمران. هذه العصابات ليست مجرد مجموعات من اللصوص. إنها منظمات عالمية معقدة تسعى للسيطرة على تاريخ أجدادنا من أجل المال. وهنا يأتي دورك... ستساعدني في كشف الخونة والانتقام منهم، بالإضافة إلى استعادة ما هو ملك لنا".

عاد عمران إلى الأوراق، وبدأ يتصفّح الصفحة الأخيرة، وجد فيها إحداثيات مكتوبة بعناية، مع دوائر مرسومة حول مواقع مختلفة في مصر.

بدت الإحداثيات وكأنها تشير إلى أماكن محددة بدقّة شديدة. سأل عمران بقلق:

"وما هذه الإحداثيات؟".

ابتسم فاروق بيك بهدوء وأشار بيده نحو الأوراق قائلًا:

"هذه الإحداثيات، يا عمران، هي المواقع التي رصدها لنا الدّلالون. بعضها تأكدنا من صحتها، ووجدنا فيها ما كنا نبحث عنه، وبعضها الآخر كانت مجرد خدعة من دلالين محتالين".

عمران، وهو لا يزال في حيرة، رفع نظره إلى فاروق وقال:

"الدلالون؟ من يكون هؤلاء؟!".

رد فاروق، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته قبل أن يشرح:

"الدلالون هم مجموعة من الأشخاص الذين يدّعون أن لديهم قدرة خاصة على كشف مواقع المقابر المدفونة التي تحتوي على الآثار. هم مثل الوسطاء بيننا وبين ما تركه أجدادُنا القدماء. لكن المشكلة، يا عمران، أن الكثيرَ منهم مجرد محتالين. بعضهم يقوم بصنع مقابر مزيفة بأيديهم، ويدّعون أنها أصلية، حتى يأخذوا منّا أموالًا طائلة!".

صمت للحظة، ثم أضاف بلهجة حازمة:

"لكننا تعلمنا كيف نكشفهم، وهنا يأتي دورك. أريدك أن تكون عيننا التي تميّز بين الدلالين الصادقين والمُحتالين".

عمران أشار إلى الخريطة البيانية التي أمامه وقال:

"ولماذا بعض المقابر في الخريطة تم تأشيرها باللون الأزرق والبعض الآخر باللون البنفسجي؟".

أطفأ فاروق سيجارته ببطءٍ في المنفضة، وابتسم قائلًا:

"اللون الأزرق يرمز إلى المقابر العادية. هذه المقابر غالبًا ما تكون

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

لأشخاص من عامّة الشعب أو من الطبقات الأقل أهمية في المجتمع الفرعوني. ما نجده فيها يكون قِطَعًا أثريَّة بسيطة مثل الأواني الفخارية، أدوات الحياة اليومية، وبعض التمائم والحُلي. قيمتها جيدة، لكنها ليست نادرة جدًا".

توقف لبرهة وأشار بإصبعه نحو النقاط البنفسجية على الخريطة وقال بِنَبرَة أكثر جِديَّة:

"أما اللون البنفسجي، فهو يشير إلى المقابر الملكية التي تكون أشد خطورة، هذه المقابر تخص الملوك والنبلاء من الفراعنة. ما نجده هناك

هو أثمن ما يمكن أن نتخيّله، تماثيل ذهبية، مجوهرات مرصعة بالأحجار الكريمة، ألواح مرسومة ومكتوبة بخط اليد تحكي تاريخ الفراعنة. بعض هذه الكنوز لا تُقدّر بثمن، وفي السوق السوداء تصل قيمتها إلى الملايين".

عمران، وقد بدت على وجهه علامات الدهشة، سأل:

"ولماذا تعتبر هذه المقابر الملكية أخطر؟".

فاروق ضحك بصوت خافت وقال:

"لأنها ليست مجرد أماكن لدفن الملوك، بل هي مَعابد للصّمت والغموض. بعضها محصّن بالفخاخ التي وضعها الفراعنة لحمايتها من اللصوص. وأيضًا، هناك تنافسٌ شرسٌ بين العصابات للحصول على هذه المقابر. إذا كنت تظن أن مجرد العثور عليها هو أصعب جزء، فأنت مخطئ. الأصعب هو النجاة أثناء الحفر وعند نقل الكنوز".

أضاف بِنَبرَة فيها مزيج من التفاخر والتحدي:

"لكن مع فاروق بيك، نحن لا نخسر. نحن نصل أولًا، ونأخذ ما نريده. والآن، يا عمران، ستبدأ أولى خطواتك في هذا العالم. سنبدأ بمواقع مشكوك فيها، وسأعتمد على قدرتك الخاصة مع سيارتك المميزة لتكشف لي الحقيقة. جاهز؟".

عمران، رغم شعوره بالخوف من ضخامة المهمة، أومأ برأسه قائلًا بصوت متردد:

"سأبذل جهدي يا فاروق بيك".

ابتسم فاروق بسخرية، وقال وهو يعود إلى كرسيه:

"لا أريد جهدك فقط، يا عمران. أريد نتائج. هذا هو ما يهم في عالمي".

توقف فاروق لبرهة، ثم قال بابتسامة خبيثة: "بعد قليل، سيصل إلينا أحد الدلالين الذين ذاع صيتهم مؤخرًا، ادّعى أنه يمتلك قدرة خارقة على كشف المقابر الملكية، أريدك أن تأخذه بسيارتك إلى الموقع الذي يريده. لقد أخبرته مسبقًا أنّ سائقي الخاص – أي أنت – هو من سيتولى نقله لضمان السرية. لكن ما أريده منك فعلًا يا عمران هو كشف حقيقته، لأنني أشك أنه يحاول الإيقاع بي في فخّ".

عمران وهو يشعر بثقل المسؤولية: "وكيف تعتقد أنه يمكن أن يخدعك؟".

فاروق: "على حسب علمي، هذا الرجل الملقب بـ(القدم الذهبية) كشف حوالي ٢٥ مقبرة في أسبوع واحد فقط. هذا رقم كبير للغاية مقارنة

بالمدة الزمنية، مما يجعلني أشك في أنه يتعاون مع جهة ما أو منظمة توفر له هذه المعلومات".

عمران: "وهل تعتقد أن هناك خطرًا في أن يخونك ويتعاون مع عصابة أخرى؟".

ابتسم فاروق بيك ابتسامة ماكرة وقال: "لا يا عمران، فأنا أسيطر على أكثر من ٢٠٠ عصابة تحت يدي، وهو يعمل مع إحدى العصابات التابعة لي، لكنَّ الخطرُ يكمُنُ في أنه قد ينقل عمليات النقل إلى العصابات الأخرى. كل مرة نقوم بعملية نقل، نتعرض لهجمات سرقة غريبة وكأنهم ينتظروننا أن نستخرج الآثار من المقبرة ليهجموا علينا".

عمران بحزم: "فهمت ما تعنيه يا فاروق بيك. سأعمل على كشف ما يخفيه هذا الرجل".

وبينما يتحدثان، رن هاتف فاروق بيك، ورد ليجد أن المتصل هو إلياس.

إلياس: "القدم الذهبية ومساعده عند البوابة، هل أسمح لهما بالدخول؟".

فاروق بيك: "أدخلهما".

وبعد دقائق، دخل المكتب رجل في منتصف الأربعينيات، نحيف، متوسط القامة، يرتدي عباءة بيضاء تغطي جسده بالكامل، حتى رأسه. بشرته حنطية، وعيناه عسليتان تشعان بالغموض. خلفه شاب في التاسعة عشرة من عمره، بشرته أغمق قليلًا، وشعره أسود قاتم. كان في إحدى عينيه ندبةٌ طويلة، كأنها ذكرى معركة خاضها.

تقدّم الرجل بخطوات هادئة، وألقى التحية على فاروق بيك، ثم قال بصوت واثق: "مرّ وقت طويل على لقائنا الأخير، يا فاروق بيك. يبدو أن المقبرة التي ستتوجه إليها هذه الليلة مهمة للغاية بالنسبة لك".

فاروق بيك: "نعم، وقد وصلتني أخبار بأننا معرّضون لهجوم من إحدى العصابات. لذلك قررتُ أن يتولى عمران نقلكم هذه المرة لضمان السرية ولتفادي الهجمات المعتادة".

القدم الذهبية بابتسامة خفيفة: "أشكرك على حرصك العالي، يا فاروق بيك. آمل أن تتم هذه العملية بسلاسة وننال رضاك... وربما رضاك يرافقه القليل من الكرم الإضافي!". قال ذلك وهو يحرك إصبعيه في الهواء وكأنه يشير إلى زيادة المكافأة.

ابتسم فاروق بيك وهو يفهم التلميح: "لا تقلق أيّها القدم الذهبية. حقك محفوظ وزيادتك كذلك. لكنني لا أريد أي متاعب".

ثم أشار نحو عمران قائلًا: "هذا سائقي عمران الذي أخبرتك عنه".

التفت القدم الذهبية نحو عمران، وأومأ برأسه قليلًا في إشارةِ ترحيب، ثم تقدم بخطوات ثابتة ومد يده قائلًا: "مرحبًا، عمران. أنا القدم الذهبية، وأتوقع أنك سمعت عني من قبل".

رد عمران بابتسامة باهتة، بينما قال الشاب الذي كان يرافق القدم الذهبية ببرود: "مرحبًا".

فاروق بيك: "لم يبقَ الكثير على الساعة الثامنة. يجب أن تنطلقوا الآن. الطريق إلى المقبرة يبعد حوالي أربع ساعات. كن حذرًا يا عمران".

أومأ عمران برأسه، مستجمعًا شجاعته، وقال: "حسنًا، يا فاروق بيك، سأحرص على أن تسير الأمور كما ينبغي".

نهض القدم الذهبية من مكانه، ونظر إلى مساعده منير بإشارة خفية تدعوه للانطلاق. لم ينطق منير بكلمة، لكنه تبع خطوات سيده نحو الخارج بخطوات هادئة ومريبة.

توجه عمران إلى السيارة، فتح الباب الخلفي للقدم الذهبية الذي جلس بارتياح وأغلق عباءته بإحكام. تبعه منير، جالسًا في المقعد المجاور له، صامتًا كعادته.

صعد عمران إلى مقعد السائق، شغّل السيارة، وألقى نظرة خاطفة على الرجلين عبر المرآة الأمامية. قال بهدوء وهو يدوس على دواسة الوقود: "سنكون هناك خلال أربع ساعات. هل هناك أي تعليمات خاصة أثناء الطريق؟".

القدم الذهبية بابتسامة غامضة: "لا شيء مهم يا عمران، فقط احرص على تجنب الطرق السريعة المكتظّة... السرية هي أساس النجاح".

مرت دقائق من الصمت الثقيل، حتى قرر عمران كسره: "سمعت أنك كشفت الكثير من المقابر الملكية مؤخرًا. لا بدَّ أنّ هذا يتطلب معرفة وخبرة كبيرتين".

القدم الذهبية وهو يتكئ برأسه إلى الخلف: "المقابر الملكية ليست كأي مقابر عادية، يا عمران. تحتاج إلى معرفة دقيقة بتاريخ الفراعنة، وفهم الرموز التي تركوها وراءهم. كلُّ مقبرةٍ تحكي قصة، وكلّ رمز يوجهك إلى الكنز المدفون".

عمران محاولًا استفزاز مزيد من المعلومات: "لكن خمسة وعشرين مقبرة في أسبوع واحد! هذا إنجاز هائل. هل تعمل وحدك أم أنّ لديك فريقًا يساعدك؟".

رفع القدم الذهبية رأسه، ونظر إلى عمران من خلال المرآة بابتسامة متكلفة: "فريق؟ لا يا عمران، أنا أعمل وحدي. الخبرة التي أملكها تكفيني".

منير بصوت بارد لأول مرة: "العمل مع فريق يعرّضك للخيانة. الأفضل أن تعمل وحدك وتحتفظ بأسرارك".

شعر عمران أن هناك شيئًا غير منطقي في هذا الحديث. رجل يدّعي العمل منفردًا لكنه يحقق أرقامًا قياسية، وشاب مرافق له يتحدث وكأنه يردد كلمات محفوظة مسبقًا!

بعد حوالي ساعة من القيادة، لاحظ عمران أن القدم الذهبية بدأ ينقر بأصابعه على حقيبة صغيرة بجانبه، وكأنه قلق من شيءٍ ما.

عمران بِنَبْرَة فضـــولية: "ما الذي تحمله في هذه الحقيبة؟ هل هي المعدات التي تستخدمها للكشف عن المقابر؟!".

القدم الذهبية بابتسامة متوترة: "شيء من هذا القبيل. لا تشغل بالك يا عمران، فقط ركز على القيادة".

ابتلعَ عمران ريقَه وشعر أن الحقيبة قد تكون مفتاحًا لفهم الكثير من الأمور. لكنه قرر التزام الصمت لبقية الرحلة، منتظرًا اللحظة المناسبة لكشف حقيقة هذا الرجل ومساعده.

وبينما كانت السيارة تقترب من المنطقة المحددة على الخريطة، أوقف عمران السيارة في موقعٍ خالٍ من السكان وسط الصحراء القاحلة. خرج القدم الذهبية من السيارة، ونظر حوله بتأنٍ، ثم قال: "هنا، يا عمران. المقبرة الملكية التي كنت أخبرك عنها مدفونة تحت أقدامنا".

نظر عمران إلى الأرض، محاولًا كبح شعوره بالريبة. "وهل أنت متأكد؟ المكان يبدو خاليًا تمامًا؟!".

القدم الذهبية بابتسامة واثقة: "هذا ما يميز المقابر الملكية، يا عمران. مظهرها الخادع!".

نظر عمران بحذر نحو منير، الذي كان يراقبه بصمت مخيف. كان الجو مشحونًا بالشكوك، وعمران يعلم أن الليلة ستكون طويلة، وربما مليئة بالمفاجآت.

القدم الذهبية بابتسامة مريبة وهو يقف تحت ضوء القمر الذي يعكس ظلاله الغامضة: "أتعلم يا عمران، الموهبة ليست في اكتشاف الكنز فقط، بل في الإحساس به... هذا ما يجعلني مختلفًا عن أي دلَّال آخر. هل تعلم لماذا أطلقوا علي لقب القدم الذهبية؟!".

عمران بتوتر وهو يحاول أن يحافظ على تماسكه: "في الواقع، كنت أتساءل... لماذا؟".

القدم الذهبية وهو يبتسم بخبث وينظر إلى الأرض: "لأن قدمي تستطيع استشعار الذهب والكنوز المدفونة تحت الأرض. إنها موهبة نادرة، وربما لعنة في الوقت نفسها".

نظر عمران إلى الأرض أسفل قدمي الرجل، ثم أعاد نظره إليه بتوجس: "هل هذا صحيح؟ هل يمكن لقدميك أن تشعر بما تحت الأرض؟".

القدم الذهبية بثقة مفرطة: "ليس الجميع يستوعب هذا الأمر. لكنك ستشهد بنفسك، يا عمران".

وما إن أنهى جملته حتى أشار إلى مُساعده بحركة بسيطة من يده. تقدم الشاب المسمى منير إلى الأمام بخطوات ثابتة، وهو يحمل حقيبة صغيرة. انحنى على الأرض، وأخرج أدوات الحفر من الحقيبة، ثم بدأ بالعمل دون أي كلمة، كأنه آلة صمّاء.

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة بعد منتصف الليل. الجو كان هادئًا بشكل مخيف، إلا من صوت الرياح التي كانت تعصف بالرمال حولهم وصوت المعول الذي يضرب الأرض.

عمران بِنَبرَة مترددة وهو ينظر إلى القدم الذهبية الذي يقف مغمض العينين: "هل... هل ستقف هناك فقط؟".

القدم الذهبية دون أن يفتح عينيه: "نعم. أنا أشعر بالمكان الصحيح. مساعدي يعرف ما يجب أن يفعله. أنا فقط أركز... وأتواصل مع الأرض".

شعر عمران بقشعريرة تسري في جسده. تصرفات هذا الرجل لم تكن طبيعية. كان يقف مثل تمثال، عَيناه مغمضتين، وكأن الأرض كانت تهمس له بأسرارها.

منير بعد دقائق من الحفر بصوت بارد: "لقد اقتربنا، أستطيع أن أرى شيئًا!".

فتح القدم الذهبية عينيه ببطء، وابتسامة النصر تعلو وجهه. "أحسنت، منير. كما توقعت، هذه الأرض تخفي شيئًا ثمينًا".

عمران وهو يقترب بخطوات حذرة: "وماذا تتوقع أن يكون هنا؟".

القدم الذهبية بِنَبرَة مُفعمة بالغموض: "إنها ليست مقبرة عادية يا عمران. هذه واحدة من المقابر الملكية. هنا يرقد أحد ملوك الفراعنة مع كنوزه".

تابع منير الحفر بحماس، وكلما استمر في العمل، بدأ الضوء الخافت للقمر يعكس شيئًا لامعًا يخرج من تحت الأرض. كانت قطعة معدنية ذهبية تظهر تدريجيًا.

منير وهو يتوقف عن الحفر: "لقد وجدتُها"!.

انحنى القدم الذهبية وأمسك القطعة بيده، ينفض عنها التراب بعناية.. "هذا مجرد بداية يا عمران. إذا كانت هذه القطعة هنا، فهذا يعني أن الكنز بأكمله مدفون هنا".

أكمل منير الحفر بهدوء، وكان الصمت يلف المكان سوى صوتِ ارتطامِ المعول بالتربة الصلبة. الهواء كان ثقيلًا والظلام يغطي كل شيء، حتى كسره صوت حاد ومفاجئ لانكسار المعول. رفع القدم الذهبية جفنيه ببطء، وبابتسامة خبيثة أعاد إغماض عينيه كأنما يستمتع باللحظة، ثم قال بصوت ساخر:

"يبدو أن الفرعون غضب لأننا اقتحمَنا منزله. منير، اذهب إلى السيارة. ستجد في حقيبتي معولًا أقوى من هذا الذي انكسر. أحضره وأكمل الحفر".

هز منير رأسه بالطاعة دون أن ينبس ببنت شفة، واتجه نحو السيارة بخطوات سريعة تاركًا القدم الذهبية واقفًا في مكانه، مغمض العينين كتمثال. عمران، الذي كان يراقب كل شيء من بعيد، شعر أن هناك شيئًا غريبًا في سلوك القدم الذهبية ومنير.

ظل واقفًا مكانه للحظات ينظر إلى القدم الذهبية المتجمد في مكانه بلا حراك، كأنه لا ينتمي لهذا العالم. هذا الشعور دفعه لاتخاذ قرار: أن يتبع منير ويُراقب ما يفعله.

بهدوء شديد وخفة تبع عمران منير نحو السيارة متجنبًا إحداث أي صوت قد يُنبّهه. وقف في الظلام يراقب منير وهو يفتح حقيبة القدم الذهبية في المقعد الخلفي. أخرج منير معولًا جديدًا، أثقل وأكبر حجمًا من السابق. في تلك اللحظة، شعر عمران أن كل شيء طبيعي، وتنفس الصعداء، لكنه قال في نفسه بهمس:

"ربما أفرطت في شكوكي. يبدو أنه يقوم بما طُلب منه فقط".

ولكن قبل أن يستدير عائدا إلى موقع الحفر، سمع صوت طقطقة خفيفة، كأنها أصابع منير تتحرك بسرعة على شاشة هاتفه. التفت عمران ببطء، وإذا به يرى منير يكتب رسالة بسرعة جنونية على هاتفه وكأنه يحاول إكمالها قبل أن يراه أحد.

حدّق عمران إلى منير بحذر، محاولًا الاقتراب أكثر لفهم ما يحدث. كانت خطواته حذرة للغاية، لكنه لم ينتبِه إلى عود خشبي صغير تحت قدمه...

عندما داس عليه، أحدث العود صوتًا خفيفًا لكنه كان كافيًا ليُسمع في هذا الصمت المطبق.

استدار منير بسرعة، وعيناه تتسعان رعبًا عندما رأى عمران خلفه. للحظات، وقف كلاهما متجمدين في مكانهما. منير كان يلهث، ويداه ترتعشان وهو يمسك الهاتف. عمران، من جهته نظر إليه بشك، ثم تقدم نحوه بخطوة ثابتة، محاولًا السيطرة على الموقف..

لكن منير لم يمنحه الفرصة حيثُ دفعه بكل قوته على صدره، فسقط عمران أرضًا وسط الرمال. في تلك اللحظة، قفزَ منير إلى مقعد القيادة، وأدار المحرك بسرعة. أدرك عمران ما يحدث، نهض بسرعة، وركض نحو السيارة التي بدأت تتحرك. قفز إلى المقعد الخلفي بصعوبة، وهو يصرخ:

"توقف يا منير! ماذا تفعل؟!".

لكن منير لم يتوقف. انطلق بسرعة جنونية بين الكثبان الرملية، محاولًا الهرب. أدرك عمران أن عليه التصرّف بسرعة. حاول أن يمسكه من الخلف لكنه لم يستطع بسبب حركات السيارة العنيفة. قفز عمران بشجاعة إلى المقعد الأمامي بجانبه، ومد يده إلى المقود في محاولة للسيطرة عليه...

اندلعت بينهما معركة شرسة. منير كان يصرخ بشتائم غاضبة، بينما عمران يحاول بكل قوته أن يسحب المقود من يديه. كانت السيارة تنحرف يمينًا ويسارًا بسرعة، وعجلاتها تغوص أحيانًا في الرمال... وفي لحظة حاسمة، جمع عمران كل قوته، ووجه ضربة قوية إلى رأس منير. ترنّح منير في مكانه ثم فقد وعيَه، رأسه يتدلى على صدره. لكن المشكلة لم تنتهي. السيارة كانت تسير بسرعة جنونية بين الرمال، وعمران وجد نفسه وحيدًا يحاول السيطرة عليها. أمسك المقود بقوة، لكن السيارة كانت تفقد توازنها بسبب الأرض غير المستوية.

أمامهما ظهر كثيب رملي ضخم، ولم يستطع عمران إيقاف السيارة في الوقت المناسب. اصطدمت السيارة بالكثيب، وبدأت تتقلّب بعنف. دارت السيارة عدة مرات في الهواء قبل أن تستقر أخيرًا على جانبها.

كان المشهد كارثيًا. الزجاج الأمامي للسيارة تحطم بالكامل، وتناثرت شظاياه في كل مكان. عمران، الذي كان ملقى داخل السيارة، أصيب بجروح عميقة في وجهه ويديه، وبدأ الدم يسيل على جبينه. تنفس بصعوبة، وعيناه تبحثان في الظلام عن هاتفه.

أخيرًا، وجد الهاتف بيد مرتجفة، واتصل بفاروق بيك. بصوت متهدج، قال:

"فاروق بيك... منير خائن... حاول الهرب... والسيارة انقلبَت... أنا مصاب... أحتاج مساعدة!!".

على الجانب الآخر من الهاتف، ظلّ فاروق بيك صامتًا للحظات قبل أن يقول بِنَبرَة باردة لكنها تحمل قلقًا خفيًا: "ابقَ حيثُ أنت يا عمران، سأرسل إلياس وفريقًا لإنقاذك فورًا. لا تتحرك، ولا تدع أحدًا يقترب منك".

أغلق الاتصال قبل أن يتمكن عمران من الرد، وبدأ يشعر أن الوعي يتلاشى شيئًا فشيئًا. كل شيء من حوله أصبح مشوشًا، إلا صوت الرياح التي تحمل الرمال وتحاكي صفيرًا حادًا في أذنيه

ألقى رأسه إلى الخلف، محاولًا البقاء واعيًا، لكن النزيف والإرهاق غلباه. أغلق عينيه ببطء، وسقط فاقدًا للوعي وسط صمتِ الصحراء الموحش.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

(الفَصلُ الثالث)

(التّنويم الفرعوني)

(توسّط القمر)

بينَ اليقظةِ والغيابِ، فجأةً، سمعتُ صوتًا خافتًا ينادي باسمي:

"عمران، استيقظ! استيقظ يا عمران!".

فتحتُ عينَي بصعوبةٍ شديدة، الرؤية كانت مشوَّشَة، وأطرافي مثقلة وكأنني مقيد. رأيت فوقي "القدم الذهبية"، مُغمَض العينين، ممسكًا بحجر كبير على شكل هرم مربوط بسلسلة طويلة. كانت نهاية السلسلة خاتمًا يرتديه على إصبعه. كان صوته خفيفًا لكنه مهيب، يكرر بهدوء:

"استيقظ يا عمران".

بجانبه كان فاروق بيك، الذي ما إن فتحت عيني حتى ابتسم ابتسامة عريضة، رفع يديه نحو السماء وشكر الله بصوت عالٍ:

"الحمد لله! لقد استيقظ!".

ردَّ "القدم الذهبية" بابتسامة غامضة:

"قلت لك يا فاروق بيك، سأجعله يستيقظ. لا تقلق على عمران، إنه قويا".

وضع فاروق يده على كتف القدم الذهبية وربّت عليه بلطف، وهو يقول بابتسامة ممتنَّة:

"كنتُ واثقًا من قدرتك، أيُّها القدم الذهبية. لا شيء يفلت من يدك!".

حاولت أن أرفع رأسي، لكن شعورًا بالثقل والدوار سيطر علي. مددت يدي لألمس وجهي، لكنني صُدمت حين شعرت بالقماش الأبيض يلفني بالكامل كأنني مومياء. لم يكن جسدي مكشوفًا، فقط أطراف من أعشاب خضراء كانت تخرج من القماش. شعرت بغضبٍ لا يمكن وصفه وصحت بصوتٍ عالٍ:

"فاروق بيك! ما الذي يفعله هذا الخائن هنا؟!".

تجاهل فاروق غضبي، وابتسم بهدوء:

"ارتح قليلًا يا عمران، سأشرح لك كل شيء عندما يحين الوقت".

ثم التفت إلى "القدم الذهبية" وسأله بِنَبرَة جديَّة:

"متى يمكننا فك القماش عنه؟ أريده جاهزًا للعمل في أسرع وقت".

ردَّ "القدم الذهبية" بصوتٍ مملوءٍ بالغموض:

"عندما يتوسط القمر السماء ويكتمل الليلة. لن يكون قبل ذلك".

عباراته أضافت طبقات من الغموض إلى الموقف. عقلي كان مليئًا بالأسئلة: لماذا القمر؟ وما علاقة ذلك بما أنا فيه؟! حاولت أن أطلب تفسيرًا، لكن لساني بدا ثقيلًا، ولم أتمكن من الحديث.

أومأ فاروق بيك برأسه علامة على الموافقة، ثم صفّق بيديه، فجاء "إلياس"، أحد أتباعه المخلصين. تحدث إليه فاروق بيك بلهجة آمرة:

"إلياس، ابقَ مع عمران. وعندما يأمرك القدم الذهبية، فك الضمادات. لا تفعل شيئًا دون إذنه".

انحنى إلياس بإيماءة طاعة، ولم ينطق بكلمة.

قبل أن يغادر الغرفة، توجه فاروق بيك نحو الباب، توقف عند عَتبتِه، والتفت بطرف رأسه نحوي ونحو القدم الذهبية وإلياس، قائلًا بِنَبرَة هادئة ولكنها صارمة:

"اعتنوا بعمران جيدًا. أريده في أتم صحّته هذا المساء".

غادر فاروق بيك، وأغلق الباب خلفه، تاركًا إياي مع الرجلين.

اقترب مني "القدم الذهبية"، ونظر إلي بابتسامة غامضة جعلتني أشعر بعدم الارتياح أكثر. أخرج السلسلة الطويلة التي كان يرتديها، وأمسك الحجر الهرمي المدبَّب المتدلي في نهايتها. قال لي بهدوء:

"استرخِ يا عمران. ركز فقط على رأس هذا الهرم المُدبّب".

بدأ يحرك الحجر ببطء شديد من فوقي يمينًا ويسارًا، وكأنه يطارد شيئًا خفيًا في الهواء. كان يُتمتم بكلمات لم أفهمها، كلمات غريبة بدت وكأنها من عالم آخر.

حاولت أن أبعد نظري عن الحجر، لكن شيئًا ما جعلني أنجذب إليه، وكأن عينيّ قد أُسرَتا به. أثناء ذلك، غمرتني أفكار عن عائلتي: كم مضى من الوقت وأنا هنا؟ كيف حالهم الآن؟ ماذا سأخبرهم إن عدت؟

شيئًا فشيئًا، شعرت بخُمول غريب يسري في جسدي، وكأنَّ الكلمات الغامضة التي كان يتمتم بها القدم الذهبية اخترقتني وأثرت في روحي. فقدت السيطرة على أفكاري، وبدأت عيناي تثقلان.

قبل أن أدرك ما يحدث، انزلقت إلى نوم عميق دون أي سابق إنذار، بينما الحجر المُدبّب لا يزال يتحرك أمامي في إيقاعه البطيء، وأصداء التّمتمات الغامضة تتلاشى في الظلام.

(جزءٌ منك)

استيقظتُ لأجد نفسي في غرفةٍ غارقة في الظلام، كلُّ ما يحيط بي بدا وكأنه امتدادٌ للصمت الكثيف. الهواء كان ثقيلًا، ولم أكن أدرك أين أنا أو كيف وصلت إلى هنا. فجأةً، رأيت رجلًا يقف أمامي، أسمر البشرة، يرتدي قماشًا أسود يغطي جسده بالكامل. كان يعطيني ظهره، كأنَّ وجودي لا يعني له شيئًا. شعرت بخوفٍ غريب، مزيجٍ من الرهبة والفضول، فقلت بتردد:

- من أنت؟!

لم يتحرك الرجل في البداية، ثم استدار ببطء شديد، وجهُه كان خاليًا من الملامح تمامًا، وكأنني أنظر إلى فراغ. ومع ذلك، كان صوتُه يحمِل ابتسامةً غامضة عندما رد قائلًا:

- ألم تعرفني يا عمران؟!

تراجعتُ خطـوةً إلى الخلف، وقلبي ينبـضُ بسـرعة. الصوت بدا مألوفًا، لكنه جاء من مكان عميق في ذاكرتي، مكان لم أكن مسـتعدًا لاستكشافه. حاولت أن أسيطر على ارتباكي وقلت:

- لا، لكن... صوتك يبدو مألوفًا جدًا.

بدأ يقترب مني بخطواتٍ هادئة وثابتة، حتى أصبح أمامي مباشرة. مع اقترابه، لم تظهر ملامح وجهه، لكن ابتسامته بدأت تتجلّى من خلال أسنانه التي أضاءت في الظلام. ثم قال بِنَبرَة أكثر قربًا:

- أنا أسدك الأسود!

تجمَّدتُ في مكاني، شعرت بصدمةٍ عنيفة تجتاحني. هذا الاسم... إنه لقب سيارتي، سيارتي التي كنت أعتبرها جزءًا مني، شريكتي في الطريق. تلعثمت وقلت بتردد:

- ولكن... هذا لقب سيارتي!

ضحك الرجل بصوت عميق ومخيف، وكأنه يعلم شيئًا أنا لا أعلمه. ثم قال بِنَبرَة جمعتْ بين السخريةِ والحكمةِ:

- عجيب أمرُكَ يا عمران... أليس غريبًا أنَّكَ لم تفكر يومًا في سرّ سيارتك؟!

شعرت بأنني قد فقدت السيطرة على الأمور. كلماته بدت وكأنها تحمل لغزًا أكبر مما أستطيع فهمه. حاولت أن أرد، لكن الكلمات لم تخرج. بقيتُ صامتًا، والظلام من حولنا يزيد شعوري بالعجز.

ثم اقتربَ أكثرَ مني، حتى شعرتُ ببرودةٍ غريبةٍ تنبعث منه. أمسك بيدي اليمنى، رفَعها بِخِفَّةٍ بينما كنتُ عاجزًا عن المقاومة. بدأ يردِّدُ بصوتٍ هادئ ومهيب:

- رُبَّ ضارةٍ نافعة... رُبَّ ضارةٍ نافعة... رُبَّ ضارةٍ نافعة!

كانت كلماته تتردد في الغرفة، كأنها صدى ينبعث من كلّ زاوية. ثم أنزل يدي ببطء، وأشار بإصبعه إلى موضع الجرح في كفي، ذلك الجرح الذي كان أثر الحادث الذي كاد يُودي بحياتي. عندها، ظهرت عيناه، لم تكن عادية... شعَّ ضوءٌ أبيضُ نقيٌّ منها، كأنَّه يخترق الظلام ويكشف كل الأسرار.

نظر إليّ بثباتٍ وقال بصوتٍ عميقٍ يملؤه الغموض:

(بالأمس كنا مُنفصلين... واليوم أصبَحنا جزءًا من جزئين).

كلماته كانت كالصاعقة. شعرت أنني أفقد السيطرة على جسدي، وكأن شيئًا جديدًا بدأ يتسلل إلى أعماقي. قبل أن أستوعبَ ما قاله، بدأتِ الغرفة تذوب من حولي، والظلام يغمرني مجددًا.

(شَظايا الزجاج)

فتحتُ عيني على ضوء القمر الذي انساب من النافذة المفتوحة، مُلقيًا خيوطًا فِضيَّة على أرجاء الغرفة. بدأت أسعل بقوة وكأنني أخرُجُ من حلمٍ عالق في أعماق صدري. أدركتُ حينها أنني كنت أحلم، أو ربما كابوسًا يحمل من الغموض أكثر مما كنت أستطيع تفسيره. حاولت تحريك رأسي، لكن جسدي لا يزال مثقلًا بتلك الحوادث والأحداث.

نظرت حولي لأرى إلياس يقف جامدًا أمامي، مثل صنم لا حياة فيه. عيناه الباردتان تُحدّقان بي، فارغتين من أي تعبير، لكنه في الوقت ذاته كان يثيرُ في نفسي شعورًا بالخوفِ والتوتر. بجانبه، كان القدم الذهبية، مغمض العينين، يحرِّكُ ببطءٍ تلك السلسلة التي يتدلى منها الحجر الهرمي.

فتح القدم الذهبية عينيه ببطء، وابتسم ابتسامة خفيفة قبل أن يُدخل السلسلة في جيبه قائلًا بِنَبرَةٍ واثقة:

- إلياس، فكّ ضِماده. أنا سأخبر فاروق بيك أنه قد أفاق.

أومأ إلياس برأسه دون أن ينبس بكلمة، ثم بدأ يقترب مني ببطء لفَكِّ الضِّماد الذي يغطّي جسدي. كان الضماد غريبًا، يذكرني بالمومياوات التي قرأت عنها، وكأنني كنت جزءًا من طقوس قديمة.

صـوت خطوات القدم الذهبية وهو يغادر الغرفة تبعه صـوت إغلاق الباب، تاركًا إلياس معي في هذه الغرفة الغريبة.

نظرت إليه بغضبٍ وقلتُ بصوتٍ متهدّج:

- لماذا يُبق فاروق بيك ذلك الخائن في القصر؟ أنت تعلم جيدًا أن منير وإياه شركاء في الخيانة!

لم يُبدِ إلياس أي تعبير، واكتفى بالرد بِنَبرَة باردة:

- هناك الكثير ممَّا تجهله يا عمران.

ازداد غضبي وصرخت:

- هل ستُخبرني بما تعرفه أم ستستمر في هذا الصمت البارد الذي يُثير جنوني؟!

نظر إلي دون أن يطرف بعينه، ثم قال ببرود لا يحتمل:

- أنا هنا لا أتحدّثُ إلّا بإذنٍ من فاروق بيك.

قبضت يديّ بشدة، شعرت أنني لو استطعت لانتزعت الكلمات من داخله. قلت بنَبرَة متهكّمة:

- دائمًا تتحدث وكأنّك آلة... ما الذي تُخفيه عني؟!

قبل أن يرد، انفتح باب الغرفة فجأة، ودخل رجل آخر يرتدي بدلة سوداء أنيقة مشابهة تمامًا لما يرتديه إلياس. كان يملك نفسَ الحضور الغامض ونفس البرود القاتل في ملامحِه. نظر إلياس نظرة حادة وقال بصوت ثابت:

- إلياس أفندي، فاروق بيك يطلب منك أن تجلب عمران إلى مكتبه الآن.

أومأ إلياس برأسه دون نقاش، ثم التفت نحوي وقال ببرود:

- يبدو أن وقت الإجابات قد حان... على الأقل، بعضها.

تقدم إلياس نحوي ليساعدني على النهوض، بينما الرجل الآخر ظلّ واقفًا عند الباب، يراقبنا بصمت. شعرت بأنّ هناك شيئًا أكبر ينتظرني، وأن لقاء فاروق بيك هذه المرة لن يكون عاديًا.

توجهنا إلى مكتب فاروق بيك، وأصوات الضحكات تتسلل من خلال الباب المغلق، عالية وواضحة، وكأنها انعكاس لفرحٍ غريب لم أفهم سببه بعد. تبادل إلياس وأنا نظراتٍ حذرة، ثم رفع يده وطرق الباب ثلاث مرات متتالية، بإيقاع متزن بدا وكأنّها عادة متفق عليها مسبقًا. لم يطُلِ الانتظار، فجاء صوت فاروق بيك واثقًا:

- ادخل يا إلياس.

دفع إلياس الباب، ودخلنا معًا. في الداخل، كان المشهد أكثر غرابة مما توقعت. فاروق بيك يجلس على كُرسيّه الجلدي الفخم، وإلى جانبه القدم الذهبية، وكلاهما غارق في الضحك، كما لو كانا يقصّان على بعضهما نكتة استمرت لساعات. كان القدم الذهبية متكئًا في الكرسي المقابل، مغمضَ العينين وكأنّ الضحك جزء من طقوسه الخاصة.

وقفت مكاني، مذهولًا، والغضب يتسلل إلى ملامحي. كيف يمكن أن يضحكا بهذه الطريقة بعد كل ما مررنا به؟! بعد الخيانة، بعد انقلاب السيارة، بعد الشكوك والدماء؟!

رفع فاروق بيك يده، مشيرًا إليّ بالجلوس في الكرسي المقابل، وقال بصوت هادئ ولكن يحمل في طيّاته ثقة مبالغ بها:

- تفضل بالجلوس، أيُّها البطل.

لم أتحرك، ظللت واقفًا، عيناي تتنقل بينهما، محاولة التقاط أي إشارة توضح لي سببَ هذه الأجواء الساخرة. بدا أنّ فاروق بيك فهم عنادي، فابتسم وسأل بِنَبرَة ساخرة:

- ما بال البطل غاضبًا؟!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

زفرت بغضب، ولكن نبرتي حملت برودًا متعمدًا، وقلت بصوت ثابت:

- فاروق بيك، ألســت أنت من قال لي إن العملة الوحيدة التي تتعامل بها هي الوَلاء؟!

في لحظة واحدة، انفجر كلاهما بالضحك من جديد، بصوت أعلى هذه المرة، وكأنني ألقيت دعابة بدلًا من أن أطرح تساؤلًا جادًا. شعرت بالغليان، قبضت يدي حتى تبيّنت عروقي، بينما كانا يضحكان دون توقف.

بعد لحظات، مسح فاروق بيك وجهه، محاولًا كبحَ ضحكته، ثم أشار إليّ مرة أخرى بالجلوس، قائلًا بِنَبرَة أكثر جِديَّة:

- اجلس يا عمران، وسوف أشرح لك كلّ شيء بالتّفصيل هذه المرة.

نظرت إليه بحدة، ثم إلى القدم الذهبية، الذي اكتفى بالابتسام، قبل أن أسحب الكرسي وأجلس ببطء، عازمًا على معرفة الحقيقة كاملة.

أشار فاروق بيك بيده إلى إلياس، فأومأ الأخير برأسه وخرج، مغلقًا الباب خلفه بإحكام. عندها، التفت فاروق بيك بكرسيّه نحو ثلاجة صغيرة خلف مكتبه، فتحها، وأخرج منها علبة سجائر فاخرة. أخذ

واحدة، أشعلها، وسحب نَفَسًا عميقًا قبل أن ينفثَ الدخان في الهواء. ثم نظر إليّ مباشرة وقال:

- ركّز معي جيدًا... بدأ الأمر في أول يوم عندما التقيت بك في ذلك الشارع الشعبي. ألم تفكر يومًا لماذا رجل أعمال غني مثلي كان يسير هناك؟! لماذا أوقف سيارة أجرة رغم أنني أملك أسطولًا من السيارات الفاخرة؟!

تجمّدت في مكاني. للحظة، شعرت أنني لا أتنفس. كانت الصدمة تتسلل إلى عقلي ببطء، مثل ماءٍ باردٍ يُسكب فوق رأسي. لم أفكر في ذلك يومًا، لم يخطر ببالي أبدًا أن هناك سببًا آخر لهذا اللقاء غير المصادفة البَحتة. توتّرت نَبرتي وأنا أجيب:

- لا، لم أفكر بذلك. ظننتُها مجرّد صدفة.

ضحك فاروق بيك بخفوت، ثم قال وهو يسحب نفسًا آخر من سيجارته:

- في عالَمِنا هذا، لا يوجد شيءٍ اسمه الصدفة يا عمران، كلّ شيءٍ مخطط له مسبقًا.

نفث الدخان ببطء، وكأنه يمنحني وقتًا لاستيعاب كلماته، ثم أكمل:

- كنت هناك لإتمام صفقة في غاية السرية، وكان عليّ أن أحضر بنفسي. لكن، لسوء الحظ، عندما وصلت إلى المكان، اكتشفت أن الشارع يعجُّ برجال الشرطة المتنكرين. كان واضحًا أنهم تلقَّوا بلاغًا عن الصفقة، والأمر كله كان فخًا للإيقاع بي.

صمت للحظة، ثم قال بصوت مُنخفض:

- إذا تم القبض عليّ، فكل شيء سينهار. عملي، سمعتي، أسراري... لم يكن لدي خيار سوى الهروب. لكن المشكلة أنني كنت وحدي. أمرت إلياس بأن يعود إلى القصر، ولم يكن لدي سيارة قريبة. كنت في مأزق.

شعرت أن جسدي بدأ يتشنّج. كنت أعرف أن فاروق بيك لم يكن مجرد رجل أعمال عادي، لكن أن يكون متورطًا بهذا الشكل؟

أكمل فاروق بيك بابتسامة خفيفة:

- عندما أدركت أنني محاصر، لم يكن أمامي إلا حلّ واحد: الاتصال بصديق الطفولة، الرجل الوحيد الذي يمكنه إخراجي من هذا الموقف...

توقف للحظة، ثم قال وهو يُحدّق في القدم الذهبية:

- أليس كذلك، أيُّها القدم الذهبية؟!

ابتسم القدم الذهبية بهدوءٍ وكأنّه يستمتع بتذكّر تلك اللحظة، ثم قال:

- بالطبع يا فاروق.

شعرتُ أن رأسي يدور. كنتُ أسمع حديثهما، لكنني لم أستطع تصديق ما أسمعه. كنت جزءًا من هذه القصة، لكنني لم أكن أعرف ذلك!

أكمل فاروق بيك بِنَبْرَة ساخرة:

- حينها، اتصلت به، وقلتُ له إنني في ورطة. فكر قليلًا، ثم قال لي: "اذهب إلى أول الشارع، امشِ ببطء، وستجد مجموعة من سيارات الأجرة. عندما تصِل، أخبرني".

ابتسم القدم الذهبية وهو يتذكر، ثم قال:

- وعندما وصل إلى هناك، سألته عن المشهد من حوله، فأخبرني بوجود ست سيارات أجرة بيضاء مصطفَّةٍ بجانب الرصيف. عندها، قلتُ له أن ينظرَ إلى اليمين قليلًا...

أكمل فاروق بيك وهو يرفع حاجبه:

- وقال لي إنني سأجد سيارةً قديمةً من طرازٍ فاخرٍ يقودُها شابٌّ بعينين خضراوين...

شعرت أن قلبي توقف. أمسكت رأسي، وأعدت تلك اللحظة في ذهني مرارًا. السيارة... السائق... الحوار...

- كنتُ أنا ذلك السائق...

ضحك فاروق بيك بصوتٍ عالٍ، وصفق بيده قبل أن يضرب كفّه بكف القدم الذهبية، بينما وقف هذا الأخير يبتسم لي ابتسامة مليئة بالغموض والثقة.

أمّا أنا، فقد شعرتُ أنّني كنت مجرّدَ بيدق في لعبة شطرنج لم أدرك حتى أنني كنت فيها منذ البداية..

كان الغضبُ يتصاعدُ في داخلي مثل إعصار لا يمكن إيقافه. رفعت رأسي، نظرت إلى فاروق بيك مباشرة، شعرت بأنّ الدم يغلي في عروقي، وقلت بصوتٍ غاضبٍ مختنقٍ بالحيرة والخيانة:

- إذَن، كل شيء كان مخططًا له؟ حتى الحادث الذي كاد يُودِي بحياتي؟! وخيانة القدم الذهبية لنا؟ كل هذا كان جزءًا من لعبتكم، مجرد وسيلة لتَسليَة أنفسكم بي؟!

اختفت الابتسامة من وجهي الرجلين فورًا، وكأن الزمن تجمد للحظة. تحولت ملامحهما من المرح إلى الجدية التامة، وكأنني أصبتُهما في مَقتل.

أخذ فاروق بيك نفسًا عميقًا من سيجارته الفاخرة، نفث الدخان ببطء، ثم نظر إلى الرجل الجالس بجانبه، المعروف بالقدم الذهبية، قبل أن يعود بنظره إليّ. كان صوته هذه المرة أكثر هدوءًا، لكنه يحمل ثقلًا غامضًا.

- ليس تمامًا، يا عمران. هذه المرة سأشرح لك الحقيقة كاملة...

ثم صمت قليلًا، وكأنه يرتِّبُ كلماته، أو ربّما يحاول أن يقرِّرَ كيف سيكشف لي هذا السر.

- بعد أن عدت إلى القصر في تلك الليلة، تلقيت اتصالًا من القدم الذهبية، كنا نتحدث عن الصفقة التي عقدتها معي، ثم ذكر لي أمرًا غريبًا... شيئًا يخصّ سيارتك، أو بالأحرى، "أسدك الأسود"، كما تُحب أن تسمّيه.

شعرت بقلبي ينكمش للحظة، ثم ينبض بقوة. سيارة؟ لماذا سيارتي؟ ما علاقتها بكل هذا؟ لم أقاطع حديثه، كنت بحاجة لسماع المزيد.

- عندما قررت أن أقوم بتحديث سيارتك، تلقّيت اتصالًا طارئًا من العمّال في ورشتي الخاصة. بدت أصواتهم مضطربة، قالوا لي إن هناك شيئًا غير طبيعي، شيئًا يجب أن أراه بنفسي. لم أنتظر لحظة واحدة، قفزت في سيارتي واتجهت إلى هناك بأقصى سرعة.

صوته كان جادًا، وكأنه لم يستوعب حتى الآن ما رآه.

- عندما دخلت الورشة، وجدت العمال متحلقين حول سيارتك، وجوههم مليئة بالذهول، وكأنهم شهدوا معجزة بأعينهم. تقدمت إليهم بسرعة وسألت بصوت مرتفع: "ما الذي يحدث هنا؟".

أحد العمال نظر إليّ وقال بتوتر:

- تعال وانظر بنفسك يا فاروق بيك، لن تصدق ما نراه!

- اقتربت، وعندما وقعت عيناي على هيكل السيارة، شعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدي... كانوا قد فككوا أجزاء السيارة الخارجية، حتى ظهر لنا الهيكل الحديدي بالكامل. وهنا كانت الصدمة...

نظرت إليه بذهول، انتظرت أن يكمل، لكنه توقف للحظة، ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، وكأنه يحتاج إلى الوقت لاستيعاب الأمر مرة أخرى.

- عمران، هيكلُ سيارتك كان مليئًا بنقوشٍ فرعونية! نقوشٌ محفورةٌ بعناية، غريبةٌ جدًا، وكأنَّها مأخوذةٌ من أحدِ المعابدِ القديمة. لكنَّها لم تكن مجردَ نقوشٍ عادية، كانت تبدو كأنها رموزٌ سِحريَّة، أختامٌ قديمةٌ محفورةٌ في المعدن نفسه.

شعرتُ بأنَّ الأرضَ تهتز تحتي. كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ سيارتي حديثة نسبيًا، لا يتجاوز عمرها ٣٦ عامًا، كيف يمكن أن تحمل نقوشًا عمرها آلاف السنين؟ هل هذا مستحيل؟ أم أن هناك سرًا أجهله؟!

لم أستطع أن أنطقَ بكلمةٍ واحدة، فقط حدَّقتُ به وأنا أحاول استيعاب هذه الحقيقة.

- لقد ذُهلت أنا والعمال ممّا رأيناه، ولم أتمالك نفسي، فأمرت الجميع بالتكتّم على الأمر. وبعدها، كان أوّل شيءٍ فعلته أنني اتصلت بالقدم الذهبية.. كنت بحاجة إلى رأيه.

(المكالمة بين فاروق بيك والقدم الذهبية)

رنَّ الهاتف، وعلى الطرفِ الآخر، أجابَ القدمُ الذهبية بصوته الهادئ المعتاد:

- أهلًا يا فاروق بيك، لم أسمع صوتك منذ مدة.

- هناك لغز جديد أريدك أن تحلّه، يا صديقي.

(يضحك القدم الذهبية:)

- حسنًا، لكنك تعرف شرطي..

- لك ما تريد، لكن متى يمكنك القدوم؟

- أنا مشغول الآن بحل مشكلة أخرى، هناك شخص في مجموعتي أعتقد أنه يخوننا، وأنت تعرف أننا لا نترك هذه الأمور تمر بسهولة.

- فهمت، ولكن الأمر طارئ، يتعلق بذلك الفتى غريب الأطوار، عمران.

بابتسامة:

- آه، يبدو أن هذا الفتى يحمل لنا الكثير من المفاجآت... ما الذي حدث وأثار دهشتك لهذه الدرجة؟ هذا ليس من عادتك، يا فاروق-

- الأمر يتعلق بسيارته... عندما قمنا بتفكيكها، وجدنا داخل هيكلها الحديدي نقوشًا فرعونية قديمة... نقوشًا لم أرَ مثلها من قبل.

ساد الصمت للحظات على الطرف الآخر من المكالمة، ثم جاء صوت القدم الذهبية بِنَبْرَة تحمل مزيجًا من الدهشةِ والحماس:

- أوه! يبدو أن هذا الفتى يخفي أكثر مما كنا نظن، يا فاروق. حسنًا، لديّ خطة قد تحقق لنا أكثر من هدف في آنٍ واحد.

- هات ما عندك.

- سأحضر معي الفتى الذي أشك في خِيانته، وسأطلب من عمران أن يرافقنا إلى تلك المقبرة التي أخبرتك عنها. لكن هناك شيءٌ أريدك أن تفعله... (يبتسم بمكر) أريدك أن تخبر عمران عن الدلالين، وكيف أنَّ أغلبهم محتالون، وأريدك بشكل خاص أن تزرع في ذهنه بعض الشكّ تجاهي.

(فاروق بيك باستغراب):

- ولماذا قد أفعل ذلك؟ ما الذي سنستَفيده؟

- الفائدة الأولى أننا سنكتشف إن كان عمران يمتلك قدرات خاصة فعلًا، أم أنه مجرد شاب عادي. لأن الأشخاص الذين يملكون مثل هذه

القدرات لديهم حسّ قوي في كشف ما يخفيه الآخرون. أما الفائدة الثانية، فهي أننا سنختبر صدق شكوكنا حول الفتى المدعو "منير"، ونعرف إن كان يخوننا أم لا.

(فاروق بيك يضحك):

- حسنًا، أيّها الماكر، لك ذلك! موعدنا غدًا، لا تتأخر.

- لا تقلق، أنا لا أتأخر أبدًا.

نهاية المكالمة

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

عدت إلى الواقع، كنت أجلس في الغرفة بينما يراقبني فاروق بيك والقدم الذهبية بصمت. لم أكن أعلم ما الذي يجب أن أقوله. كنت في حالة صدمة.

- قدرة مميزة؟ نقوش فرعونية على سيارتي؟

ثم، فجأة، تذكرت شيئًا جعل جسدي كله يقشعر... الحلم!

ارتفع صوتي دون أن أشعر:

- هذا يفسر القليل مما رأيته في حلمي الليلة الماضية...

نظر إليّ القدم الذهبية باهتمام، أمال رأسه قليلًا، ثم قال بصوت هادئ ولكنه يحمل نبرة فضول:

- أخبرني يا عمران... ما الذي رأيته في الحلم؟

جلست أمام القدم الذهبية، أحاول استجماع تفاصيل الحلم الذي لا يزال عالقًا في ذهني. كنت أشعر أن هناك شيئًا غريبًا بشأنه، شيئًا لم أستطع تفسيره، لكن عندما بدأت بسرد التفاصيل، رأيت في عينيه اهتمامًا غيرَ مألوف.

كان يسألني عن كل شيء، عن الألوان، عن الأصوات، عن تفاصيل الرجل الغامض الذي رأيته. كان يريد أن يعرف كل شيء، كأن الحلم بالنسبة له كان أكثر من مجرد رؤيا عابرة.

وعندما وصلت إلى النهاية، نظرت إليه مباشرة وقلت:

- اقترب مني ذلك الرجل الغامض وأشار إلى موضعٍ في يدي، ثم قال لي: "رُبَّ ضارّة نافعة". وكررها ثلاث مرات، قبل أن ينتهي الحلم بكلمة غريبة...

توقفت للحظة، ثم تابعت بصوت خافت، كأنني كنت أعيد سماع صدى الكلمات في رأسي:

- قال لي: "بالأمس كنا منفصلين... واليوم أصبحنا جزءًا من جزئين".

في تلك اللحظة، تبدّلت ملامح القدم الذهبية فجأة. كان في البداية هادئًا تمامًا، كعادته الباردة، لكن بمجرد أن سمع الجملة الأخيرة، تغير

تعبيره إلى الاستغراب. ثم، وبعد لحظات من الصمت، تحولت ملامحه إلى الذهول. بدا وكأنه رأى شبحًا أمامه، وكأن الكلمات التي قلتها كانت تحمل له معنى لا أفهمه.

ثم، دون أي سابق إنذار، قفز من على كرسيه بسرعة مفاجئة، وكأنّ شيئًا ما ضربه بقوة غير مرئية. قبل أن أستطيع حتى استيعاب ما يحدث، أمسك بيدي بقوة وبدأ يقلبها بين أصابعه، يفحصها بتركيز غريب، كأنه كان يبحث عن شيء محدد.

أخذ يتفحص كفي، ثم معصمي، ثم راح يمرر أصابعه على يدي، كأنها خريطة تحوي سرًا عميقًا.

ثم فجأة، توقف، وأشار بإصبعه إلى موضع محدد في يدي.

- هنا! قال بصوتٍ مليءٍ بالحماسِ والانفعال.

نظرت إليه بذهول، وكذلك فاروق بيك، الذي لم يكن أقل دهشة مني. لم يكن معتادًا على رؤية القدم الذهبية بهذه الحالة الانفعالية. كان دائمًا متحكمًا بنفسه، باردًا كالجليد، لكن الآن، الآن كان مختلفًا تمامًا.

سألته بصوت مُتردّد:

- نعم، هنا؟

بمجرد أن أكدت كلامه، رأيته يبتسم تلك الابتسامة المريبة، ثم، دون تحذير، ضغط بأصابعه بقوة على الموضع الذي أشار إليه.

في نفس اللحظة، شعرت بألم غريب يضرب يدي، كأنّ شيئًا كان يتحرك تحت جلدي! لم يكن مجرد ضغط، كان إحساسًا غريبًا، كأن هناك جسمًا غير طبيعي مدفونًا تحت الجلد، وكأن يدي كانت تحمل شيئًا لا ينتمي إليها.

صرخت من الألم، وحاولت أن أسحب يدي بعيدًا، لكن قبضته كانت قوية، وكأنه لم يكن مستعدًا للتخلي عن هذه اللحظة. كانت عيناه تلمعان بحماس غريب، وكأنه اكتشف كنزًا كان يبحث عنه منذ سنين.

ثم، فجأة، أطلق سراح يدي، تراجع إلى الخلف وهو يضحك، ومسح على وجهه، وكأنه لم يصدق ما رآه.

ثم، بِنَبْرَة مليئةٍ بالانتصار، قال بصوت مُنخفض لكنه كان واضحًا وقاطعًا:

- الآن، فهمت كل شيء.

وقف القدم الذهبية يتأملني بعينين مليئتين بالغموض، وكأنه يرى شيئًا لم أتمكن من استيعابه بعد. ثم أشار إلى يدي، بالتحديد إلى الموضع

الذي ذكره الرجل في حلمي، وقال بصوت هادئ لكنه يحمل ثقلًا غامضًا:

- "الموضـــع الذي أشـــار إليه الرجل في حلمك... داخله شـــظيّة زجاج، اخترقت يدك أثناء الحادث".

حدقت في يدي بتوتر، لم أكن أشعر بأي شيء غريب فيها، لكنها بدت لي فجأة وكأنها تحمل سرًا لم أكن مدركًا له. كان حديثه مشحونًا بشيء مبهم، بشيء أكبر مما كنت أتصور، لكن ما قاله بعد ذلك زاد من اضطرابي أكثر:

- "وهذا يعني شيئًا عظيمًا، يا عمران... القوة الغامضة التي كانت كامنة في سيارتك، ذلك الإلهام أو الهَمس المَجهول، لم يختفِ... بل أصبح الآن بداخلك".

شعرت برجفة تسري في جسدي. نظرت إليه بدهشة، محاولًا فهم كلامه. كيف يمكن أن تنتقل قوة سيارة إلى إنسان؟ كيف يمكن لشظية زجاجٍ أن تحمل شيئًا أكثر من مجرد ألمها المعتاد؟ كنت في حالة صدمة، وذهني يضجّ بالأسئلة التي لم أجد لها إجابة.

لكن قبل أن أتمكن من استجماع أفكاري، سمعت ضحكة خافتة، ضحكة تحمل خبثًا واضحًا. رفعت رأسي فرأيت فاروق بيك ينهض من

خلف مكتبه، خطواته كانت بطيئة لكن واثقة، كمن وجد شيئًا ذا قيمةٍ لا تقدَّر بثمن.

اقترب مني ببطء، ثم مد يده وأمسك بيدي التي أشار إليها القدم الذهبية. كان يمسكها بقوة، كأنه يتحقق من شيء بنفسه، ثم رفعها قليلًا ونظر إليها بتمعن، قبل أن تنفرج شفتيه عن ابتسامة ماكرة.

قهْقهَ بصوت عالٍ وهو ينظر إلى القدم الذهبية نظرة ذات مغزى، ثم عاد ببصره إليّ، بينما لا تزال أصابعه القوية ممسكة بيدي بقوة.

- "يبدو أننا سنجني الكثير من الذهب من وراء هذا الفتى يا صديقي!".

كانت نبرته مليئة بالطّمع، وكأنني لم أعد مجرد شخص، بل كنزٌ حيّ بين أيديهم. شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، وأدركت حينها أنني ربما كنت في موقف أخطر مما تخيلت. لم يعد الأمر يتعلق بحادثِ سيارة أو نقوشٍ غامضة، بل بدا وكأنني أصبحت جزءًا من شيء أكبر، شيء لا أعرف إن كنت مستعدًا له...

شعرت بدوار مفاجئ، وكأن العالم حولي بدأ يضيق. نظرت إلى يدي التي أمسك بها فاروق بيك، كانت أصابعه تضغط على الموضع الذي أشار إليه القدم الذهبية قبل قليل. لم أكن متأكدًا مما أشعر به، لكنّ شيئًا غريبًا بدأ ينساب في جسدي، كأنّ تيارًا خفيفًا يسري تحت جلدي، نابضًا بالحياة.

- "ماذا... ماذا تقصد بالضبط؟!". تمتمتُ بصوت مهزوز، وكنت بالكاد أستطيع السيطرة على أنفاسي.

ضحك فاروق بيك مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت ضحكته أعمق، وكأنها محملة بمعرفة لا أمتلكها بعد. سحب نفسًا طويلًا من سيجارته قبل أن يقول بصوت هادئ ولكن حاد:

- "يا عمران، ما تملكه الآن ليس مجرد شيء عادي... إنها معرفة قديمة، شيء دفن منذ آلاف السنين والآن وجد طريقه إليك".

لم أستطع تصديق ما أسمعه. نظرت إلى القدم الذهبية، الذي كان لا يزال يراقبني بوجه متجهم، لكنه لم يكن ينظر إلي كما ينظر فاروق بيك، لم تكن في عينيه تلك النظرة الجشِعة، بل نظرة شخص وجد أخيرًا ما كان يبحث عنه لسنوات طويلة.

- "انتظر، لحظة واحدة!". صرخت وأنا أسحب يدي بقوة من قبضة فاروق بيك: "كيف لشظية زجاج أن تنقل لي أي نوع من القوة أو المعرفة؟ هذا جنون!".

- "هنا...". ابتسم القدم الذهبية ابتسامة غامضة، ثم أشار إلى الكرسي المجاور له، كأنه يطلب مني أن أجلس. ترددت قليلًا، لكن جسدي كان يرتجف، لذا جلست ببطء، فيما هو أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

- "الأمر ليس كما تظن، يا عمران. ما انتقل إليك لم يكن مجرد زجاج، بل كان شيئًا آخر... شيئًا دفن داخل تلك السيارة منذ قرون. أنت تظن أن سيارتك عمرها ٣٦ عامًا فقط، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي بحذر، فقال بصوت هادئ لكنه مشحون بمعانٍ خفية:

- "أنت مخطئ!".

تسارعت أنفاسي، بينما أكمل:

- "السيارة التي تملكها كانت مجرد غلاف، قشرة تخفي سرًا دفينًا منذ آلاف السنين، شيئًا يعود لعصر لم يتمكن المؤرخون من كشف كل أسراره بعد... القوة التي شعرت بها ليست وليدة اليوم، بل قد تكون امتدادًا لشيء بدأ منذ آلاف السنين، والآن أصبح جزءًا منك".

شعرت بالقشعريرة تسري في عمودي الفقري، وأصبحت أنفاسي أثقل. هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أن تكون تلك النقوش الفرعونية التي وجدوها داخل السيارة ليست مجرد زينة، بل تحمل سرًا حقيقيًا؟ هل من الممكن أنني أصبحت جزءًا من شيء لا أفهمه بعد؟!

لكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء، تقدم فاروق بيك خطوة أخرى إلى الأمام، وانحنى قليلًا حتى أصبح وجهه قريبًا من وجهي، ثم قال بصوت منخفض لكنه مليء بالإثارة:

- "أخبرني يا عمران... هل تشعر به؟".

تجمدت مكاني:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- "أشعر بماذا؟".

سألت بصوت بالكاد خرج من حنجرتي.

ابتسم بخبث وأشار إلى يدي، ثم قال:

- "ذلك النبض... تلك الطاقة الخفية التي تتحرك تحت جلدك وكأنها تحاول أن تُظهر نفسها للعالم".

لم يكن بحاجة إلى قول ذلك، لأنني كنت أشعر بها بالفعل، ذلك التيار الدافئ الذي يتحرك ببطء في يدي، ثم ينتشر عبر ذراعي، ثم إلى صدري...

لكن السؤال الحقيقي كان: ما هذه القوة؟ وما الذي تعنيه؟!

دونَ سابقِ إنذار، قطع أفكاري صوتُ فاروق بيك، وهو يقترب مني بخطواتٍ هادئة ولكن محملة بِنَبْرَةِ خبثٍ مألوفة، وقال بصوتِه العميق:

- "اسمعني جيدًا يا عمران، أريدك أن تعود إلى منزلك الليلة وتطمْئِن عائلتك عليك. لقد اتصلت بوالدتك مسبقًا وأخبرتها أنني مديرك في العمل، وأن هاتفك قد تعطّل، وأنك كنت في مهمة عمل مفاجئة، حتى لا تقلق بسبب غيابك المفاجئ. ولكن الآن، أريد منك أن تعود إليهم الليلة، وتؤكد لهم أنك بخير".

توقف فاروق بيك للحظة، ثم أخرج من جيب سترته رزمة كبيرة من الدولارات، ورفعها أمامي بإيماءة واثقة قبل أن يمد يده نحوي قائلًا:

- "خذ هذا المال، اشترِ لهم ما يحتاجونه، وامنحهم الباقي. اجعلهم يشعرون أنك بخير، وأخبرهم أنك ستكون مشغولًا جدًا في الفترة القادمة".

وقفت مدهوشًا، نظرت إلى رزمة المال في يده، لم أكن أصدق حجم المبلغ الذي يعرضه عليّ بهذه السهولة. لم يكن مجرد مبلغ بسيط، بل كان كافيًا ليؤمن لعائلتي حياة كريمة لشهور قادمة. تسارعت دقات قلبي، وشعرت بحرارة تتصاعد في داخلي. لم أكن معتادًا على رؤية هذا القدر من المال، فكيف لي أن آخذه هكذا دون مقابل واضح؟

رفعت عينيّ إلى فاروق بيك وسألته بحذر:

- "لماذا سأكون مشغولًا؟".

لكن قبل أن يتمكن فاروق بيك من الرد، قاطعه القدم الذهبية وهو يبتسم ابتسامته المعتادة التي تحمل وراءها نوايا لا يمكن قراءتها بسهولة، وقال بصوت هادئ لكنه مُشبع بالمكر:

- "لأن العمل الحقيقي سيبدأ من الغد يا عمران...".

نظر إلي نظرة طويلة قبل أن يضيف:

- "سأبدأ بتعليمك كيف تصبح دلّالًا من الطراز الأول، كيف تكتشف الكنوز، وتحدد أماكن المقابر الفرعونية الملكية، وكيف تستخرجها. ليس هذا فقط، بل سأعلمك أيضًا كيف تستخدم قدراتك الجديدة، تلك التي بدأت تتكشف أمامك، والتي لم تدرك بعد قوتها الحقيقية".

سَرَت قشعريرة في جسدي، وكأن كلماته كانت تطرق بابًا مظلمًا بداخلي لم أكن أعلم بوجوده. كان الأمر أكبر مني، أكبر من أي شيء تخيّلته في حياتي. لم أكن سوى شاب عادي، والآن، وجدت نفسي في عالمٍ لم أطلب الدخول إليه، عالم مليء بالسراديب الغامضة، والذهب، والطمع، والخيانة... عالم قد يكون من المستحيل الخروج منه بمجرد الدخول إليه.

لكن، وبين كل هذه الفوضى، كان هناك شيءٌ واحد يقف في ذهني كجدارٍ صَلْب، لا يهتز ولا ينهار...

عائلتي.

مهما كان الظلام الذي أغرقني، ومهما كان الخطر الذي ينتظرني، لن أنسى هدفي الوحيد؛ أن أؤمّن لهم حياة كريمة، حتى لو كان ذلك يعني أن أضع حياتي على المحك.

نظرت إلى المال مرة أخرى، ثم إلى فاروق بيك والقدم الذهبية...

كنت قد اتّخذت قراري بالقبول.

(الفصل الرابع)
(أربعون إلا واحد)

بعد ستة أشهر...

(النّشرَة الحَمراء)

الساعة الثالثة والنصف فجرًا – صحراء سيناء، طريق حورس

السماء صافية، يُزيِّنها قمرٌ مكتمل يتلألأ كعينٍ راصدة، أمّا الأرض، فكانت تمتد أمامي كبحرٍ من الرمالِ الناعمة لا حدودَ لها. كان الهواء باردًا، يلسَع وجهي بينما أقف في منتصف هذا الامتداد الصحراوي المهجور. الصمت كان ثقيلًا، لا يُسمع سوى صوتُ الرياح التي تتراقص فوق الرمال، وكأنّها تحاول أن تخبرني بشيءٍ مخفيّ.

أغمضت عيني، رفعت كفي إلى أذني ببطء، وتركت ذهني ينجرف إلى ما تعلمته خلال الأشهر الستة الماضية. ما إن هدأت أنفاسي حتى بدأت الهمسات تتهافت عليّ، قادمة من مكانٍ آخر، ليست أصواتًا بشرية، بل أصواتٌ قديمة، وكأنها امتدادٌ لذكرياتٍ مدفونةٍ تحت الرمال.

"تقدّم يمينًا، أنزل رأسك ببطء، سوف تلقى المكان بين المكان..."

لم أشك للحظة في صحة ما أسمعه. تعلمت خلال تدريبي الطويل أن أثق في هذه الهمسات، أن أجعلها دليلي وسط الظلام، فهي ليست مجرد تهيُّؤات، بل صدًى لعلمٍ دفين، علم لا يدركه إلا القليلون.

حرّكت كفي من أذني ووضعتها على عيني، ثم أغمضتهما من جديد. بدأت أرى، ليس بعينيّ، ولكن بعقلي... تحت الرمال، كان هناك شيءٌ

مختلف، جدران حجرية، أبوابٌ مختومة، نقوشٌ محفورة لم تلمسها يدٌ منذ آلاف السنين.

فتحت عيني ببطء، ثم همست بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- "المقبرة هنا، أيّها القدم الذهبية!".

"عالم الدّلالين"

التفتُ إلى معلمي، القدم الذهبية، الذي كان جالسًا متربعًا على الرمال على بعد أمتارٍ منّي. لم يتحرك، بل اكتفى بالنظر إليّ، وعلى وجهه تلك الابتسامة التي اعتدت عليها، مزيجٌ غريبٌ من الفخر والخبث. لقد رأيت هذه الابتسامة عشرات المرات خلال الأشهر الماضية، كلما نجحت في اختبارٍ جديد، أو أثبتُّ له أنني أتعلم بسرعة.

قبل ستة أشهر، كنت شخصًا عاديًا، لا أعرف شيئًا عن عالم "الدلالين"، أما الآن، فقد أصبحت واحدًا منهم. لا، بل أصبحت شيئًا أكثر من ذلك...

خلال تدريبي، لم يعلمني القدم الذهبية فقط كيف أستخدم قدراتي، بل كشف لي أسرارَ عالم الدلالين، العالم السفلي الذي لا يعرف عنه الناس شيئًا.

تعلمت أن الدلال المحترف ليس مجرد مكتشف للكنوز، بل هو عالم، ومحقق، وروحاني، ومحاربٌ في آنٍ واحد.

علّمني القدم الذهبية كيف أقرأ النقوش الفرعونية، ليس فقط كرموز جامدة، بل كتعويذات تحمل طاقة حقيقية. علّمني كيف أفهم لعنات الفراعنة، تلك التي يستهزئ بها الناس، لكنهم لو رأوا حقيقتها لما تجرأوا حتى على الاقتراب من مقبرة قديمة.

قال لي ذات مرة:

- "يا عمران، المقابر ليست مجرد حجارة قديمة. إنَّها أماكن محمية بطقوس عمرها آلاف السنين، والطريقة الوحيدة لدخولها دون أن تسقط ضحيَّةً للَّعنة، هي أن تفهم هذه الطقوس وتعرف كيف تفكَّ شفرَتها".

تعلمت أن اللعنة ليست مجرد أسطورة، بل هي مزيجٌ من السموم، والفخاخ، والتعاويذ القديمة التي تحيط بالمقبرة.

تعلمت أن بعض الناس يمتلكون قدرةً خاصّـــة على مقاومةِ تأثيرِ اللّعنات، وأنني واحدٌ منهم.

تعلمت أن الدلال لا يبحث فقط عن الذهب، بل يبحث عن المعرفة، لأن المعرفة هي مفتاح كل شيء.

والآن، بعد ستة أشهر، أصبحت أرى العالم بعينٍ أخرى... لم أعد ذلك الفتى الذي كان يخشى المجهول، بل أصبحت أنا من يقتحم المجهول ويكشف أسراره.

"لحظة هدوء قبل العاصفة"

اقتربت من القدم الذهبية، وجلست بجانبه. أمامنا، كان فريق الحفر الذي أرسله فاروق بيك يعمل بجد، يزيلون الرمال عن مدخل المقبرة. لكنهم لم يكونوا يجرؤون على الدخول قبل أن نقوم بفك لعنتها، وهذا ما تعلمته خلال تدريبي.

كانت الجدران الهيروغليفية تخبرني بقصةٍ لا يراها أحدٌ غيري، قِصَّة أصحابها الذين حُفظت أجسادهم داخل هذا المكان لمئاتِ السنين، وقِصَّة الكنوز التي بقيت مدفونةً معهم.

قاطع تأملي صوت القدم الذهبية وهو يقول بابتسامةٍ خبيثة:

- "ألم تسمع آخر الأخبار، يا عمران؟!".

نظرتُ إليه باستِغراب:

- "أخبار عن ماذا؟".

ضحك بصوتٍ خافت، ثم قال بثقة:

- "لقد بزغَ نجمك في الآونة الأخيرة. ازداد صيتك، وأصبح الجميع في مجتمع الدلالين يتحدثون عن الشاب الذي كشف عن سبعين مقبرة خلال ستة أشهر فقط!".

شعرت بموجةٍ من الفخر تسري في داخلي، لكنني أخفيتها، ثم قلت بهدوء:

- "الفضل يعود لك، يا معلمي".

ابتسم القدم الذهبية وقال بِنَبرَة ماكرة:

- "أتريد أن تعرف ماذا أصبحوا يلقبونك؟".

رفعت حاجبي باهتمام:

- "ماذا يا ترى؟!".

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال ضاحِكًا:

- "أصبحوا يلقبونك بـ"الكفّ الذهبية"، لأنهم يزعمون أنَّك بمجردِ أن تضعَ يدك على الرمال، ترى ما لا يراه غيرك!".

ضحكتُ، وقلتُ ساخرًا:

- "اختيار الألقاب عندكم له طريقة غريبة يا معلمي!!".

لكن فجأة، تغيرت ملامح القدم الذهبية، وتحوَّلت ابتسامته إلى تعبير جاد. نظر إليّ بحزم وقال:

- "لكن هذا يعني شيئًا مهمًا، يا عمران... لقد أصبحت معروفًا، وهذا خطير. قد تلفت أنظار الحكومات، وقد تصبح مطلوبًا للقبض عليك في أي لحظة. عليك أن تخفي هويتك جيدًا، أفهمت؟!".

نظرت إليه بثقةٍ وقلت:

- "لا تقلق، سأكون على ما يرام!".

(صوت هاتف يرن)

أخرج القدم الذهبية هاتفه من جيبه، نظر إلى الشاشة، ثم أجاب بلهجةٍ واثقة:

- "مرحبًا فاروق بيك".

جاء صوت فاروق بيك من الطرف الآخر، يحمل نبرةً جادة:

- "كيف العمل معكم أيُّها الأبطال؟!".

ابتسم القدم الذهبية وهو يراقب العمال يعملون بجد:

- "كل شيء يسير على أكمل وجه، لا تقلق يا صديقي".

- "ممتاز، سنعقد اجتماعًا الليلة مع جميع فروع العصابة. الاجتماع مهم، أيُّها القدم الذهبية، هناك مسألة تشكّل خطرًا علينا في الآونة الأخيرة، وأريدك أن تحضر أنت وعمران، لا تتأخّرا".

تبادلنا النظرات، ثم أجاب القدم الذهبية بجدية:

- "حسنًا، سنكون هناك في الموعد".

أغلق الهاتف، ثم نظر إليّ بصمت. كانت نظرته هذه المرة مختلفة، كأنّ شيئًا أكبر بكثير مما أتوقع ينتظرني في الاجتماع القادم...

الطريق إلى القصر: رحلة عبر الصّمت والغُموض

أغلق القدم الذهبي هاتفه بحركة بطيئة لكنها حازمة، وكأنَّ قرارَه الأخير قد حُسم ولا رجعة فيه. رفع رأسه قليلًا، ثم ألقى نظرةً سريعة إلى الأفق المظلم، حيثُ كانت أنوارُ المدينة تومض كالنجوم المتناثرة في سماء الصحراء البعيدة. بخطواتٍ واثقة، اتجه نحو سيارته الفاخرة، التي كانت تقف بجانبنا كوحش ميكانيكي ينتظر صاحبه. فتح الباب بهدوء، ثم أشار إليّ برأسه لأركب. لم أجادل، جلست بجانبه بينما تسلل إحساسٌ

غريب بالتوترِ إلى صدري، وكأن الليلة كانت تحمل أسرارًا لا يُفصح عنها إلا في الوقت المناسب.

انطلقنا عبر الطريق الصحراوي الطويل، حيث كانت الأضواء الخافتة تومض على الإسفلت كما لو أنها ترشدنا نحو المجهول. كانت السيارة تنساب على الطريق بسلاسة، بينما الهواء البارد يتسلل من نافذتها المفتوحة جزئيًا، ليحمل معه رائحة الصحراء الجافة والمجهولة. قطع القدم الذهبي الصمت بصوته العميق المتزن، قائلًا:

"القصر يبعد عن هنا خمس ساعات، علينا التحرك الآن إذا أردنا الوصول في الوقت المحدد وأخذ قسطٍ من الراحة".

أومأت برأسي دون أن أنبس بكلمة. كان صوته حاسمًا، لا يقبل التأخير أو الجدل. أدرت نظري إلى الأمام، أراقب الطريق الطويل الذي يمتد بلا نهاية أمامنا. داخل السيارة، لم يكن هناك سوى صوت المحرك المنخفض، وصوت الرياح التي تعوي برفق وكأنها تحاول تحذيرنا مما هو قادم.

عند وصولنا، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا، والشمس بدأت تتسلل بين الأفق، ترسم ظلالًا طويلة على القصر الذي انتصب أمامنا كقلعة مهجورة، جدرانه العتيقة تشي بتاريخ طويل مليء بالأسرار.

كانت بوابته الحديدية السوداء موصدة، لكنها سرعان ما فُتحت بصوت خشخشة معدنية ثقيلة، وكأنها تُعلن وصولنا إلى عالم آخر، عالم تحكمه قوانين خاصة لا يعلمها سوى قلة مختارة.

داخل القصر، كان كل شيء مغطى بهالة من الصمت المريب. لم يكن هناك أي صوت، لا خدم يهرولون كالعادة، ولا أصوات تدل على حياة. حتى الهواء داخل القصر كان مختلفًا، يحمل رائحة الجلد الفاخر، والسيجار الغالي، ومزيجًا من العطور القوية التي لا يمكن أن يخطئها الأنف.

إلياس، الوجه البارد للقصر، كان في استقبالنا عند المدخل. وقف هناك، كما اعتاد دائمًا، بملامحه الجامدة التي لا تعكس أي شعور. عيناه السوداوان كانتا تراقباني كما لو كان يزن وجودي، يبحث عن أي خلل قد يكشفه.

لم يرحب بنا، لم ينطق حتى بكلمة واحدة، بل اكتفى بإيماءة بسيطة قبل أن يخطو إلى الخلف، مفسحًا لنا الطريق. كان هذا هو أسلوبه المعتاد؛ صامت، دقيق، لا يتحرك إلا عندما يكون ذلك ضروريًا.

صعدت إلى غرفتي، الغرفة التي خصصها لي فاروق بيك، والتي أصبحت ملاذي عندما كان التعب ينهشني بعد الليالي الطويلة من

العمل. أما القدم الذهبية، فكان لديه طقوسه الخاصة، يفضل البقاء في صالة الضيوف، جالسًا على الأريكة الطويلة، ظهره مستقيم كما لو كان تمثالًا منحوتًا بدقة، وعيناه مغمضتان.

لطالما كنت أشك أنه ينام بالفعل. كلما خرجت في أي وقت، سواء كان ذلك عند الفجر أو منتصف الليل، كنت أجده في نفس المكان، في نفس الوضعية، دون أدنى حركة. كان أشبه بحارس أبدي، لا يترك منصبه أبدًا. وما كان يثير دهشتي أكثر، هو أنه بمجرد أن أبدأ بالتحرك، كان يفتح إحدى عينيه فقط، كما لو كان يستشعر خطواتي، ثم يسألني بصوتٍ هادئٍ لكنه نافذ:

"إلى أين أنت ذاهب؟!".

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

أرخيتُ جسدي على السرير الكبير، محدقًا في السقف المزين بنقوش قديمة، عقلي يسبح في تساؤلات لا نهاية لها. ماذا سيكون موضوع اجتماع الليلة؟ ما الذي يخطط له فاروق بيك؟ لماذا يعقد هذه الاجتماعات في ساعات متأخرة من الليل؟ أسئلة بلا إجابات، لكنها لم تمنعني من الانجراف إلى نوم عميق.

استيقظت فجأة على صوتٍ حاد ينادي:

"أيها الكفّ الذهبية، استيقظ! فاروق بيك يأمرك بالحضور إلى قاعة الاجتماعات".

فتحت عيني بسرعة، كان إلياس يقف أمامي، ثابتًا كالعادة، كأن روحه انفصلت عن جسده. نظراته السوداء اخترقتني، وملامحه لم تحمل أي تعبير.

تنهدت وقلت له بسخرية، محاولًا تخفيف حدة التوتر:

"أما زلت مستمرًا في هذه العادة الغريبة يا إلياس؟ أقسم أنك لو كنت لصًا، لسرقت قصور العالم كله دون أن يشعر بك أحد!".

لم يتغير وجهه قيد أنملة، لكنه قال ببرود:

"الجدران لها آذان، أيها الكفّ الذهبية. اليوم هويتك أصبحت ثمينة، ويجب أن تحافظ عليها بحذر، وإلا...".

رفع حاجبه قليلا، ثم أكمل بصوت منخفض لكنه حاد:

"وإلا ستكون في خطر لا مفر منه".

نظرت إليه بنصف ابتسامة، ثم قلت:

"يا رجل، لو كنت بهذا القلق على حياتي، لما أوقفتَ قلبي بهذه الطريقة قبل قليل".

لم يعلق. فقط نظر إلي للحظة، ثم أدار ظهره وقال:

"لا تتأخر. الساعة الآن ١١:٥٥، والاجتماع في الثانية عشرة تمامًا. أي تأخير قد لا يعجب فاروق بيك".

في غضون دقيقتين، كنت جاهزًا. سرت بسرعة عبر أروقة القصر الطويلة، حتى وصلت إلى الباحة الخلفية، حيث كانت القاعة الكبرى تنتظرنا.

كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تمامًا عندما وقفتُ أمام البوابة الخلفية للقصر، التي لم تطأها قدمي سوى مرة واحدة من قبل. كان الهواء يحمل برودة خفيفة، لكنها لم تكن برودة الطقس بقدر ما كانت برودة المكان نفسه، كأن الجدران حجبت عنها الدفء عمدًا.

خطوتُ إلى الداخل، ووجدت نفسي في الباحة الكبرى، وهي قاعة هائلة الاتساع، سقفها مزين بثريات كريستالية تتلألأ تحت ضوء خافت، ترسل انعكاساتها على الأرضية الرخامية السوداء، وكأن النجوم قد تجمّعت على سطحها. الجدران مزينة بنقوش قديمة وأعمدة ضخمة، تمنح القاعة هيبة قصر ملكي عتيق.

لكن أكثر ما شد انتباهي كان الحشد المنتشر في القاعة. حوالي أربعين شخصًا، رجال ونساء، من أعمار وأعراق مختلفة، جميعهم يرتدون ملابس سوداء بالكامل. لم يكن فيهم شخص واحد يرتدي لونًا آخر، وكأنهم جزء من طقس مقدس لا يسمح بالخروج عنه. بعضهم كان يتحدث بصوت خافت، يتهامسون بكلمات لم أستطع تمييزها، وكأنهم يخشون أن تتناثر أسرارهم في الهواء. آخرون وقفوا صامتين، يتفحصون القاعة بنظرات دقيقة، كما لو أنهم يراقبون أي حركة غير مألوفة.

في الزاويتين الخلفيتين من الباحة، كان هناك رجلان يقفان منفصلين عن البقية، يمسكان بسجائر طويلة، يتصاعد منها دخان كثيف برائحة قوية، شبيهة بتلك التي يدخنها فاروق بيك. ملامحهما كانت جامدة، لكن أعينهما كانت تراقب المشهد كالصقور، وكأنهما مسؤولان عن حماية هذا المكان.

ثم حدث ما غيّر المشهد بالكامل.

في لحظة واحدة، فُتح الباب الذهبي الضخم المطلّ على القاعة، صريره كان عميقًا وممتدًا، كأنه يعلن عن دخول شخصية لا يمكن تجاهلها. عندها، توقف الجميع عن الحديث دفعة واحدة، وتحولت الأنظار إلى المدخل.

خرج فاروق بيك بخطوات واثقة، يرتدي سترة سوداء أنيقة للغاية، تفصيلها دقيق، وقماشها يلمع تحت الإضاءة الخافتة، مما يضفي على حضوره هيبة لا مثيل لها. وجهه كان صارمًا، وعيناه تحملان تلك النظرة المميزة التي تجمع بين الذكاء الحاد والبرود القاتل.

على يساره، كان "القدم الذهبية" يسير بهدوء، لكنه مختلف هذه المرة. لم يكن يرتدي ثوبه الأبيض المعتاد، بل كان ملفوفًا بقماش أسود فاخر، يزيده غموضًا، وكأنه شبح خرج من العتمة ليكون الحارس الشخصي لفاروق بيك. عيناه كانتا مغمضتين، لكن ملامحه كانت توحي بيقظة كاملة، وكأن بإمكانه استشعار كل شيء من حوله دون الحاجة إلى الرؤية.

أما خلفهما، فكان إلياس يسير كتمثال متحرك، سترته السوداء مضبوطة بدقة، ويداه معقودتان خلف ظهره، ووجهه لا يزال يحمل نفس الجمود الذي لا يتغير أبدًا. كانت نظراته تشبه سلاحًا حادًا، لا يلين، ولا يتراجع، مُترقب دوما.

توقف فاروق بيك وسط القاعة، وألقى نظرة عميقة وبطيئة على الحشد. لم يكن مجرد تفحص عابر، بل كان يفحصهم فردًا فردًا، كأنه يزن كل واحد منهم بعينيه، يختبر ولاءهم، يقرأ أفكارهم، ويحدد من يستحق البقاء ومن عليه أن يخشى الساعات القادمة.

ظل الصمت يلفّ المكان، حتى بدا أن الهواء نفسه قد توقف عن الحركة. استمر الصمت لأكثر من دقيقة كاملة، لكنها بدت وكأنها دهور. الجميع ظل واقفًا في انتظار، لا أحد يجرؤ على النطق أو التحرك.

ثم، فجأة، رفع فاروق بيك كلتا يديه إلى جانبه وكأنه يفرد جناحيه، وقال بصوت عميق وثابت، كأنه قاضٍ ينطق بحكم نهائي:

"أهلاً بكم في قصر فاروق بيك، يا أفراد عصابة إخناتون وحلفائها. أرحب بكم في الاجتماع السنوي العشرين".

كانت كلماته تحمل وزنًا ثقيلًا، كما لو أنها نُقشت على الحجر. لم يكن الأمر مجرد تحية، بل كان إعلانًا لبدء شيء أكبر، شيء لا يمكن التراجع عنه.

ما إن أنهى جملته، حتى استدار بهدوء، وأعطى الحشد ظهره، وسار نحو الداخل، وكأنه يعلم أن الجميع سيتبعه دون تردد.

في لحظة واحدة، تحرك الحشد. لم يكن الأمر عشوائيًا، بل كان أشبه بمراسم عسكرية دقيقة. الجميع اصطفوا في خطوط منتظمة، كل شخص بجانب آخر، وساروا نحو المدخل بخطوات متناسقة، وكأنهم تدربوا على ذلك لسنوات.

عند الباب، وقف أحد خدم القصر، يرتدي بدلة سوداء أنيقة، لكنه لم يكن مجرد خادم عادي. في يده كان يحمل صحنًا ذهبيًا فاخرًا، تملؤه سجائر فاخرة، كل واحدة منها مرتبة بعناية، وكأنها تحمل معنى أكبر من مجرد التبغ.

كل شخص يمر أمامه كان يلتقط سيجارة، يشعلها، ثم يتابع سيره، وكأنها جزء من تقاليد مقدسة داخل هذه العصابة. لم يكن هناك تردد أو استفسار، الجميع يعرفون القواعد.

وفي غضون دقائق، كان الجميع قد اختفى، لم يبقَ في الباحة سوى الأضواء الخافتة، والدخان المتصاعد في الهواء، كأنه أثر لحضور قوة خفية لا تُرى لكنها تُشعر.

في تلك اللحظة، أدركت شيئًا واحدًا:

فاروق بيك لا يدير مجرد اجتماع، بل يدير إمبراطورية من وراء الكواليس، حيث كل شيء محسوب، وكل حركة مدروسة، وحيث الولاء ليس مجرد كلمة، بل حياة أو موت.

كان الشعور بالتوتر يتصاعد بداخلي كلما اقتربت أكثر من البوابة الذهبية، عيناي تراقبان التفاصيل حولي، وأفكاري لا تزال تائهة وسط الأسئلة التي لم أجد لها إجابة. عند دخولي، استوقفني العامل الذي يحمل صينية السجائر الفاخرة. لم ينطق بكلمة، لكن نظرته كانت أمرًا صامتًا، وكأنه يخبرني بأخذ واحدة. لم أكن معتادًا على هذه الطقوس، لكنني التقطت سيجارة بحركة سريعة، وأخفيتها في جيبي قبل أن أخطو إلى الداخل.

ما رأيته هناك جعلني ألتقط أنفاسي.

قاعة ضخمة أخرى، لكنها أكثر رهبة وغموضًا. الرخام الأسود يكسو الأرضية، وكل جدار، وكل زاوية. الزخارف الذهبية الدقيقة تحيط بالمكان، تتسلل عبر الجدران كأنها شرايين حياة تجري في جسد القصر. لكن أكثر ما لفت انتباهي كانت الطاولة العملاقة في منتصف القاعة.

كانت الطاولة مصنوعة من أندر أنواع الرخام الأسود، تتخللها عروق بيضاء طبيعية تزيدها جمالًا وهيبة. طولها يمتد حتى يكاد لا يُرى طرفها الآخر، كأنها مصممة لتجمع كبار الشخصيات فقط. حولها جلس الحشد الكبير، وكل منهم يحتل مكانًا محددًا، وكأن كل كرسي خُصص لشخصية لا يمكن استبدالها.

لكن الكراسي نفسها كانت مثيرة للاهتمام.

كل منها مصنوع من خشب أسود فاخر، منجد بصوف بني غامق، لكنها لم تكن كراسي عادية، بل كراسي ملكية، ورأسها مرتفع حتى يكاد يلامس سقف القاعة العملاق، مما يمنح الجالسين هيبة أكبر وكأنهم قضاة الزمن.

في منتصف الطاولة تمامًا، كان يجلس فاروق بيك.

كرسيه كان مختلفًا.

أكبر، أكثر فخامة، ورأسه أطول من جميع الكراسي الأخرى، وكأنه عرش وسط هذه المملكة المخفية.

على يمينه، جلس "القدم الذهبية"، واضعًا إحدى قدميه فوق الأخرى، مغمض العينين، متجاهلًا كل شيء حوله، وكأن الاجتماع لا

يعنيه. على يساره، كان الكرسي فارغًا، كأنه لم يُشغل منذ سنوات، وكأن الجميع يعرف أن هذا المقعد محجوز لشخص استثنائي.

الصمت كان مهيمنًا.

كل شيء كان منظمًا بدقة، حتى الألواح المعدنية الصغيرة أمام كل شخص، والتي تحمل اسمه ومنصبه. نظرت إلى بعض الأسماء:

أمام "القدم الذهبية": (نائب رئيس إخناتون ومسؤول استطلاع المقابر).

أمام "فاروق بيك": (الرئيس العام لإخناتون والمتحدّث العام لآل حورس).

عندما وصلت إلى الباب، كنت واقفًا، لا أعلم أين يجب أن أجلس. لم يكن هناك أي مقعد يحمل اسمي. نظرت إلى الحاضرين، فوجدت أعينهم تتفحصني، وكأنهم ينتظرون أن أعرف مكاني بنفسي.

لكن فاروق بيك أنهى هذا الصمت الغريب.

أشار إلي بابتسامة مليئة بالثقة والترقب نحو المقعد الفارغ بجانبه، وقال بصوت ثابت:

"تفضّل إلى مقعدك، أيها الكفّ الذهبيّة".

بمجرد أن نطق فاروق بيك بتلك الكلمات، انفجر التوتر في القاعة.

تبادل الحاضرون النظرات بدهشة، بعضهم همس لبعضهم، وبعضهم اكتفى بالنظر إلي بعينين متسائلتين وممتلئتين بالشك. كيف لشاب بعمري أن يجلس في هذا المكان؟ كيف حصلت على منصب كهذا بهذه السرعة؟

سرت نحو الكرسي تحت أعينهم التي كانت تخترقني كالسكاكين، وكأنها تحاول سبر أغواري وفهم سري.

وصلت إلى الكرسي، وحاولت تحريكه، لكنه كان ثقيلًا جدًا، كأن هناك من يثبته في الأرض عمدًا.

لكن قبل أن أحاول مرة أخرى، تحرك الكرسي بسرعة وسلاسة شديدة للخلف.

التفت بسرعة، فرأيت "إلياس" يقف خلفي، وقد سحبه بإصبعيه فقط، دون أن يغير تعبير وجهه ولو قليلًا. ثم أشار إلي بكفه الباردة أن أجلس.

جلست على الكرسي، لكن نظرات الحضور لم تفارقني.

كنت أرى في عيونهم مزيجًا من الغيرة، الحسد، والفضول. البعض كان يُحدّق بصمت، والبعض الآخر يحرك أصابعه على سطح الطاولة بتوتر. الغضب كان محسوسًا في الأجواء، حتى وإن لم ينطق أحد بكلمة واحدة.

لكن وسط هذا الصمت المشحون، سمعت همسًا خافتًا بجانبي.

"من الطبيعي أن يغاروا من شاب مثلك وصل إلى مكان يطمح إليه أولئك العجائز".

التفت إلى مصدر الصوت، فرأيتها.

امرأة في الثلاثين من عمرها، بشعر أشقر طويل، وعينين زرقاوين نافذتين. كانت جالسة على مقعدها، تدخن سيجارة من نفس النوع الفاخر الذي يستخدمه فاروق بيك، وتنظر أمامها بغير اكتراث.

سألتها بعفوية، لكن بنبرة متوترة:

"عن أي مكانة تتحدثين، يا آنسة؟".

ابتسمت بسخرية طفيفة، وأجابت بهدوء:

"يبدو أنك جديد بيننا، ولم يشرح لك فاروق ما هو هرم إخناتون الرئاسي".

صدمتُ.

ليس فقط بسبب كلامها، بل لأنها نادتْ فاروق باسمِه المجرد، دون لقب "البيك"، الذي يستخدمه الجميع احترامًا له.

لكن قبل أن أستوعب كلامها، قطع فاروق بيك الحديث بصوته القوي:

"ليس هذا هو الوقت المناسب لتشرحي له يا (أولافيرا)!".

ثم استدار إليَّ، وأشار إليها وهو يقول:

"أعرفك، يا عمران، هذه أولافيرا، أختي الصغرى، والمسؤولة عن تأمينِ معلومات العصابة".

ثم اقترب مني قليلًا، وهمس في أذني بِنَبْرَة ماكرة وغامضة:

"وكشفِ الخونة أيضًا".

ثم أسند ظهره إلى الكرسي مجددًا، وعاد للابتسام بنفس الابتسامة الغامضة التي لا يمكن فهمها.

عاد الصمت يهيمن على المكان، لكن هذه المرة، لم يكن صمتَ توتُّرٍ فقط، بل كان صمت انتظارٍ.

لم أكن أفهم، ما الذي ينتظره الجميع؟ لماذا لم يبدأ الاجتماع بعد؟!

وفجأة، صدحَ صوتٌ قويٌّ في القاعة.

"دونغ! دونغ!".

كان صوت جرسٍ ضخم، أشبه بجرس كنيسة قديمة، لكنه لم يكن قادمًا من السقف.

تتبعتُ الصوت بنظري، حتى وقعت عيناي على ساعة ضخمة في زاوية القاعة.

كانت تحفةً خشبيةً فاخرة، مليئةً بنقوشٍ متداخلة، وكأنها تحكي قصة تاريخية قديمة. عقاربها الحديدية تتحرك ببطء، والحلقة الذهبية في أعلاها تتأرجح يمينًا ويسارًا، تصدرُ ذلكَ الصوت العميق الذي يعلنُ بدايةَ شيءٍ مهم.

الاجتماع قد بدأ.

كانت العقارب الحديدية العتيقة للساعة الخشبية تدور بثقل، كأنها تسحق الزمن تحت وطأتها. وعندما التقت عقاربها عند الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، ساد الصمت التام في القاعة. لم يكن مجرد

صمتٍ عادي، بل كان صمتًا يحمل نذير شؤم، وكأنّ الجميع يعلم أن هذه اللحظة ليست لحظة عابرة.

وفي اللحظة ذاتها، ضرب فاروق بيك بيده على الطاولة الرخامية السوداء بقوة.

"دويُّ الضربة تردد في أرجاء القاعة، وكأن المكان كله اهتز تحت تأثيرها. التفتت جميع العيون إليه في لحظة واحدة، كأنهم مقيدون بنظراته التي كانت -رغم سكونها- تحمل نذر العاصفة.

اعتدل في جلسته.

اقترب بجسده من الطاولة الرخامية، شبّك يديه أمامه، ثم بدأ يمرر نظراته بين الحضور، عيناه ثاقبتان، باردتان، تحملان من الحزم أكثر مما تتحمله الجدران الثقيلة حوله.

ثم تحدث بصوت هادئ، لكنه مليء بالسلطة التي لا يمكن تحديها:

"اليوم هو الاجتماع العشرون".

ذكرى العشرون عامًا من الهيمنة!

"استمرت اجتماعاتنا لعشرين عامًا، منذ عهد والدي، ياسين حورس، مؤسس عصابة إخناتون. واليوم، في سنتي الخامسة كرئيسٍ

لعائلة حورس، أُجدد هذا الإرث الذي صنعناه بدمائنا، عصابةً امتد ظلها فوق العالم...

نحن، إخناتون، لسنا مجرد عصابة.

نحن نتحكم بالآلاف من العصابات المنتشرة في العالم. صيتنا بلغ القارات كلها. نحن الذين نفَّذنا عمليات مستحيلة، لا تجرؤ أقوى عصابات المافيا على الاقتراب منها.

واليوم، أستطيع أن أقول بكل فخر... نحن الوحيدون الذين تتعامل معهم.. الحكومات الأوروبية.

(ثم قال بصوت خافت، لكن الجميع سمعه جيدًا):

- "سواءً كان ذلك في تأمين السلاح لهم، أو في... أمورٍ أخرى".

أشعل سيجارة أخرى، أناملُه تتحرك بهدوء قاتل، كأن الدخان الخارج من السيجارة لم يكن إلا ظلًا لعاصفةٍ تلوح في الأفق.

سحب نفسًا عميقًا، ثم صمت قليلًا، مما زاد من توتّر الموجودين.

- "أنتم تعلمون أن كل اجتماع نعقده يحمل إعلانًا أو قرارًا جديدًا، أليس كذلك؟".

أومأ الأربعون شخصًا الجالسون حول الطاولة في نفس اللحظة، وكأنهم قطيعٌ يخضع لسيد واحد.

ابتسم فاروق بيك ابتسامة خفيفة، لكنها لم تكن تحمل أي دفء، بل كانت ابتسامة رجل يعلم أنه يملك زمام الأمور تمامًا.

ثم أكمل بصوتٍ أخفض، لكنه أكثر إيحاءً:

- "اليوم لديّ أكثر من خبر، بعضها جيد، وبعضها قد يكون سيئًا للبعض، وبعضها رمادي... وسنعرف قريبًا إن كان رماديًا فعلًا، أم سينقلب إلى لون آخر".

ثم صمت للحظة، واتسعت ابتسامته بشكل خبيث.

- "بماذا تريدون أن أبدأ؟".

لم يتجرأ أحد على الإجابة مباشرة.

تبادلت النظرات بين الحضور، وكأنهم يحاولون قراءة أفكار بعضهم البعض. لم يكن أحد يرغب في أن يكون أول من يتحدث.

حتى كسر الصمت رجلٌ متوسط البنية، أسمر اللون، ذو شعرٍ خفيف، ويرتدي نظارات شمسية سوداء.

كان يجلس في المقعد الخامس من الجانب الأيمن لفاروق بيك.

تنهد بتأفف، ثم قال بصوتٍ خشن، لكنه يحمل مسحةَ خوفٍ خفية:

- "لم نسمع أخبارًا جميلة منذ مدة... هل يمكنك البدء بالخبر الجيد، يا فاروق بيك؟!".

التفتت الأنظار إلى الرجل، ثم عادت إلى فاروق بيك، الذي كان يُخرج سحابة من الدخان ببطء، بينما تتسع ابتسامته شيئًا فشيئًا.

ثم قال بصوت هادئ، لكن حمله كان أثقل من الرصاص:

- "بالطبع، لك ذلك يا عرفات".

في أقل من طرفة عين، بحركةٍ سريعة كضربة أفعى، أخرج فاروق بيك مسدسًا ذهبيًا منقوشًا بزخارف فرعونية.

لم يُمهل أحدًا حتى يتنفس.

أطلق رصاصة واحدة.

"طاخ!!".

الرصاصة شقت الهواء بسرعة مرعبة، واستقرت في جبهة عرفات.

لم يكن هناك وقت حتى ليُبدي الرجل أي ردة فعل.

رأسه انفجر كزهرة شيطانية، الدماء تطايرت، وبعضُ شظايا الجمجمة تناثرت فوق الطاولة الرخامية السوداء.

الجثة بقيت في مكانها للحظات، ثم تهاوت ببطء، كما لو أن الروح غادرت متأخّرة عن الجسد.

ساد الصمت.

صمتٌ ليس كأي صمت، بل صمتٌ يحمل في طياته رائحة الموت.

بعض الوجوه بقيت جامدة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث. البعض الآخر اتسعت عيونهم حتى كادت تخرج من محاجرها. والبعض، اكتفى بأن يُغلق عينيه، وكأن ذلك كافٍ ليبعد عنه بشاعة المشهد.

أما فاروق بيك، فقد كان هادئًا كما لو أنه لم يفعل شيئًا يُذكر.

أعاد المسدس إلى مكانه، ثم سحب نفسًا آخر من سيجارته، أطلق الدخان ببطء شديد، وكأنه يستمتع بطعمه أكثر من أي وقتٍ مضى.

ثم قال بصوتٍ هادئ، لكنه وصل إلى جميع الآذان بوضوح:

- "وهذا هو الخبر الجميل".

ثم ضحك.

ضحكة خفيفة، لكنها كانت ضحكة رجلٍ اعتاد أن يكون سيد اللعبة، والمتحكم الوحيد بمصائر الجميع.

ارتشف فاروق بيك نفسًا عميقًا من سيجارته الفاخرة، ثم نفث سحابة دخانية تماوجت في الهواء كأنها تنذر بقدوم شيءٍ جلل، ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة قبل أن يقول بصوت هادئ لكنه مَشحون بالغموض:

- "والآن... مع الإعلان الرمادي!".

ساد الصمت للحظات، وكأن الجميع يتحسّسون وقع كلماته، ثم أكمل بصوت منخفض لكنه محمل بالثقل:

- "تفضل بالدخول، يا عين الذئب!".

وما إن أنهى جملتَه حتى اندفعتِ البوابةُ الخشبيةُ الضخمةُ للقاعةِ ببطء، مُصدِرةً صريرًا عتيقًا، كأنها تُعلن عن دخول شخصٍ ليس كأيِّ شخص. ارتفعت أنظارُ الحاضرينَ بترقُّبٍ حذرٍ نحو المدخل، فيما وقفتِ الحراسةُ على جانبي الباب، فتحرّك منهما اثنانِ بخطواتٍ مهيبةٍ، كأنهما يُفسحان الطريقَ لظلٍّ مجهول، لظلٍّ يحملُ من القوةِ والرهبةِ ما يجعله مختلفًا عن أيِّ شخصٍ آخرَ في هذه القاعة.

خطا إلى الداخلِ شابٌّ في مقتبلِ العشرينّيات، طويلُ القامةِ، متناسقُ البنيةِ، يرتدي سترةً جلديةً سوداءَ فوق قميصٍ أنيقٍ وبنطالٍ بنفسِ اللون، ملامحُه كانت منحوتةً بعنايةٍ إلهية، وسامته كانت فريدةً من نوعها، لكنها لم تكن مجردَ وسامةٍ عادية، بل كانت ممزوجةً بهالةٍ من الغموضِ والهيبة، وكأنها درعٌ غير مرئيٍّ يلفُّه بالكامل.

عيناه... كانتا أول ما لفتَ نظري، عينانِ عميقتانِ كظُلمةِ الليل، تحيطُ بهما رموشٌ كثيفةٌ تمنحُهما مظهرًا أشبه بالكحلِ الطبيعي، لكن ما كان مخيفًا حقًّا لم يكن سوادَها ولا حِدّةَ نظراتها، بل ذلك الشعورُ الغريبُ الذي اجتاحني حين التقت عيناي بعينه... وكأنني وقعتُ في فخٍّ لا مفر منه، وكأن نظراته لم تلامسني فقط، بل اخترقت روحي وصولًا إلى أعماقي، شيءٌ داخلي ارتجف، إحساسٌ مبهم، مزيجٌ بين الخوفِ والانجذاب، بين الرهبةِ والتآلف، وكأنني أقف أمام كيانٍ لا ينتمي لهذه اللحظة، بل لعالمٍ

آخر، زمنٍ آخر، شيءٌ لا أستطيع وصفه، لكنه كان هناك، يعبثُ بي دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدة.

مشى بخطواتٍ واثقة، ثقيلةٍ لكنها غير متعجّلة، خطواتُه كانت كنبضاتِ الساعة، محسوبةً بدقة، كأنها جزءٌ من لحنٍ غامضٍ يعزفُ وحده في هذه القاعة. لم يكن متوترًا، لم يبدُ عليه أيُّ قلق، بل على العكس، كان هدوؤه أشبه بحضورِ العاصفةِ قبل أن تضربَ الأرض.

وصل إلى مقعدِ "عرفات"، نظر إلى الجثةِ الملقاةِ على الكرسي وكأنها لا تعني له شيئًا، نظرةٌ باردة، خاليةٌ من أيِّ تعبير، ثم رفع عينيه نحو "فاروق بيك"، لم يتكلم، لكن النظراتِ التي تبادلاها لم تكن عابرة، كان هناك شيءٌ مخفيٌّ بينهما، شيءٌ لا يراه أحدٌ سواهما.

ابتسم "فاروق بيك" ابتسامةً خفيفة، ثم صفقَ صفقتينِ ببطء، لتتحركَ مجموعةٌ من الرجالِ ببدلاتٍ سوداءَ نحو الجثة، رفعوها دون اكتراث، وكأنهم ينقلون شيئًا بلا قيمة، ثم توجهوا نحو النافذةِ الزجاجيةِ الضخمةِ المطلةِ على البهوِ الخارجي... وبحركةٍ واحدة، ألقوا بها إلى الخارج، ليُسمعَ بعدها صوتُ ارتطامٍ ثقيل، كأنَّ الجثةَ كانت مجردَ عبءٍ أخيرٍ تم التخلصُ منه.

عاد الرجالُ إلى أماكنِهم، فيما لم يتحركْ "عين الذئب" حتى للحظة، فقط سحبَ الكرسيَّ بهدوءٍ وجلسَ، وضعَ ساعديه على الطاولة، ثم بدأ ينظرُ ببطءٍ إلى الحاضرين، واحدًا تلوَ الآخر، كأنه يمتحنهم، يتفحصهم، يتغلغل إلى أعمقِ نقطةٍ في دواخلِهم... وعندما وقعت عيناه عليّ، شعرتُ بأن الزمنَ تجمدَ للحظة، أنفاسي تعثرت، ونبضي تسارع، شعرتُ بقشعريرةٍ باردةٍ تزحفُ على عمودي الفقري، لم أستطعْ تحريكَ نظري عنه، وكأنني محاصر داخل سجنِ نظراته، شيءٌ ما في داخلي كان يصرخ، يُحذرني، لكن في ذات الوقت كان هناك إحساسٌ آخر، إحساسٌ بأنني أعرفه... رغم أنني لم أرَه من قبل في حياتي.

شعرتُ بطنينٍ حادٍّ في أذني، وكأن ضوضاء غير مرئيةٍ تقتحمُ رأسي، وضعتُ يدي على أذني محاولًا تهدئةَ ذلك الإحساس، لكن فجأةً، وسط كل ذلك الصمت، سمعتُ همسات.. لم تكن همساتٍ عادية، كانت واضحةً بشكلٍ لم أعهده من قبل، كانت تقول:

- "السلام، السلام، الرحمة والبركة...".

تجمّدتُ في مكاني، كانت هذه أول مرة أسمع فيها الهمسات بهذا الوضوح، وكأنّها تعرف شيئًا لا أعرفه، وكأنّها تخاطب شخصًا مألوفًا لها... وحين أبعدت عيني عن "عين الذئب" للحظة، ثم عدت لأنظر إليه، رأيت شيئًا غريبًا...

ابتسامة خفيفة جدًا، بالكاد تُرى، استمرت أقل من ثانية، لكنها كانت هناك... وكأنَّها رسالة أرادني أنا فقط أن أفهمها.

قطع هذا الصمت صوت فاروق بيك من جديد، وهو يشير إلى "عين الذئب" قائلًا:

- "الكثير منكم سمع عن عين الذئب، عن المهمات المستحيلة التي نفذها، عن كونه الرجل الوحيد الذي يمكنه التعامل مع ما لا يستطيع أحد الاقتراب منه... لكن قليلون فقط هم من رأوه وجهًا لوجه".

توقف للحظة، ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، نفث الدخان ببطء، ثم وقف فجأة، تبعه الجميع وقوفًا، كنت متأخرًا قليلًا بسبب الدوخة التي أصابتني، لكنني تبعتهم في النهاية.

صفق فاروق بيك مجددًا، فتقدم "إلياس" من الخلف، يحمل لوحةً معدنيةً صغيرة مماثلة لتلك الموجودة أمام كل شخص في الطاولة، وضعها بين يدي فاروق بيك، الذي قرأ النقش المحفور عليها بصوت واضح:

- "عين الذئب... رئيس وحدات عصابة إخناتون".

ثم رفع عينيه، وقال بصوت قوي:

- "والآن، باسم فاروق بيك، وباسم عصابة إخناتون، أُعيِّنُ عينَ الذئبِ رئيسًا لوحداتنا الخاصة، تقديرًا لإنجازاته التي لم يحققها أحدٌ قبله خلال عامه الأول بيننا".

وضع اللوحة أمامه، بدلًا من لوحة "عرفات"، ثم سحب نفسًا آخر من سيجارته قبل أن يضيف بصوت أكثر غموضًا:

- "وهذا هو الإعلان الرمادي...".

صـــمت للحظة، ثم نظر إلى "عين الذئب" مباشرة وقال بابتســامة خفيفة:

- "وبمناسبة منصبك الجديد... أريدكَ أن تخبر الحضور عن الإعلان الأخير... أقصد الخبر الذي أخبرتني به ليلة البارحة، والذي من أجله عقدنا هذا الاجتماع".

سادت القاعة لحظةٌ من الترقب المشحون... الجميع كان ينتظر ما سيقوله "عين الذئب"، لكنني كنت أعرف شيئًا واحدًا؛ أنَّ ما سيقوله الآن، سيغير كل شيء.

أخرج "عين الذئب" علبةً معدنيةً فاخرةً من جيب سترته، فتحها ببطء كاشفًا عن سجائر مرتبة بعناية، تنبعث منها رائحة التبغ الفاخر.

اختار واحدةً منها، أشعلها بهدوء، ثم أخذ نفسًا عميقًا، تاركًا الدخان يتلاشى في الهواء كأنما يحمل معه بعض الأفكار الغامضة. صمت للحظة، ثم ألقى بنظره البارد نحو الجميع وقال بِنَبْرَةٍ ثابتة:

- "سأتحدث الآن... لكن قبل ذلك، أريد أن أوضح لكم سبب مقتل عرفات".

ساد الصمت في القاعة، وتوجهت جميع الأنظار نحوه وكأن قوةً خفيةً تجذبهم إليه، كأنه مغناطيس يجبرهم على التركيز في كل كلمةٍ ينطق بها. سحب نفسًا آخر من سيجارته، ثم واصل حديثه بهدوءٍ خطير:

- "دعوني أسألكم أولًا... هل تعرفون الإنتربول؟".

بدا التردد على البعض، هزّ بعضهم رؤوسهم بنفيٍ صامت، بينما فضل الآخرون التزام الصمت دون أي إشارة. ابتسم عين الذئب ابتسامةً خفيفة، ثم قال بصوت منخفض لكنه محمل بالمعرفة:

- "حسنًا، دعوني أشرح لكم... الإنتربول، أو الشرطة الدولية، هو أكبر جهاز شرطة في العالم، يضم ١٩٥ دولة تعمل معًا لتعقب المجرمين والمطلوبين الدوليين. عندما تستهدف الإنتربول شخصًا ما، فهذا يعني أن لا مكان آمن له، ولا مفر، مهما كان نفوذه وقوته".

مرر أصابعه على طرف الطاولة، ثم أضاف:

- "الإنتربول يعتمد على نظام النشرات المرمزة بالألوان، ولكل لون دلالة محددة. هناك النشرة الحمراء، وهي أخطرها، وتصدر بحق الأشخاص المطلوبين للعدالة بهدف اعتقالهم وتسليمهم. وهناك النشرة الزرقاء، التي تُستخدم لتحديد هوية شخص مجهول. النشرة الصفراء، للأشخاص المفقودين، والنشرة البرتقالية للتحذير من تهديداتٍ محتملة... والقائمة تطول".

ألقى نظرةً خاطفة على وجوه الحاضرين، وكأنه يراقب ردود أفعالهم قبل أن يتابع بِنَبرَةٍ أكثر حدة:

- "أما اليوم... فالأمر أكبر من مجرد نشرةٍ حمراء. اليوم، وصلنا إلى مستوى غير مسبوق... الإنتربول وضع جميع النشرات على عصابة إخناتون، لكن الأمر الأكثر خطورة...".

صمت لوهلة، ثم أشار بإبهامه للخلف نحو النافذة التي أُلقيت منها جثة عرفات، وقال دون أن يلتفت:

- "بسبب الواشي الملقى هناك... تم إصدار نشرة الأمم المتحدة بحق رئيس العصابة".

ساد الوجوم في القاعة، وكأن الجميع استوعبوا فجأة حجم الكارثة.

أكمل عين الذئب بصوت صارم:

- "نشرة الأمم المتحدة... شيء لم يحدث من قبل. هذا يعني أن فاروق بيك وكل فرد منكم كان ليكون ضمن قائمة المطلوبين دوليًا، أسماءكم كانت ستصبح في أخطر القوائم، الدول ستبدأ بملاحقتكم، شركاؤنا من العصابات والمافيات الأجنبية سيترددون في التعامل معنا خوفًا من أن نكون مراقبين... كل شيء كان سينهار".

أخذ نفسًا آخر من سيجارته، ثم قال ببرود:

- "ولولا أنني تصرفت بالوقت المناسب، لكنا الآن في وضع لا يُحسد عليه أحد".

نظر للحاضرين بعينين ثابتتين ثم تابع بلهجة آمرة:

- "لهذا السبب... أريد من الجميع أن يقفوا الآن أمامي، أريد التأكد من أن لا يوجد خائن آخر بيننا".

ساد التوتر في القاعة، تبادل الحاضرون النظرات فيما بينهم، خليط من الغضب والخوف يملأ عيونهم. ارتفعت الأصوات فجأة، وقاطع أحدهم بغضب:

- "هل نحن جميعًا مشكوك في أمرنا الآن؟! نحن الذين عملنا مع فاروق بيك لسنوات؟! يأتي هذا الشاب الذي لم يكمل سوى سنة واحدة بيننا، ويُملي علينا الأوامر؟!".

تراجع البعض في مقاعدهم، بينما شحبت وجوه آخرين. عندها، تحدث فاروق بيك، بِنَبرَةٍ حادة كالنصل، وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

- "أوامر عين الذئب... هي أوامري. ومن يرفض الخضـوع لهذا الاختبار... فسأعتبره خائنًا من الآن فصاعدًا".

تحولت القاعة إلى مقبرةٍ من الصمت، قبل أن يتحرك الجميع ببطء من أماكنهم، وتقدموا ليصطفوا أمام عين الذئب، تمامًا كما أمر.

أما أنا، فقد كنت مذهولًا. لم أتحرك من مقعدي، كنت أشاهد كيف انقلبت الأمور تمامًا منذ لحظة دخول عين الذئب. لم يكن مجرد شخصٍ عادي...

شـعرت بيد تربت على كتفي، التفت لأرى فاروق بيك ينظر إليّ مباشرة، وقال بصوت واضح:

- "يا عين الذئب... أولافيرا وعمران والقدم الذهبية تحت كفالتي، أضمن أنهم أهل للثقة".

أومأ عين الذئب برأسـه إيجابًا، ثم عدّل جلسـته، التفت نحو الحاضرين الذين اصطفوا أمامه، عندها سمعت القدم الذهبية يهمس لي وهو يبتسم ابتسامةً ذات مغزى:

- "راقب... وتعلّم".

لم أفهم ما يقصده تمامًا، حتى رأيت ما فعله عين الذئب...

بدأ يطلب من كل شخص أمامه أن يصافحه، وبمجرد أن تلامس يده يد الشخص الآخر... كان الأخير يدخل في حالة غريبة. لم يكن يسقط أو يفقد وعيه، لكنه بدا وكأنه يغوص في أعماق عقله للحظات، وكأن شيئًا ما يربطه بعين الذئب. لم يكن هناك أي تفسيرٍ منطقي لما يحدث.

بعد ثوانٍ من المصافحة، كان عين الذئب يطرق بإصبعيه الاثنين، فيستعيد الشخص وَعيه، ويأمره بالعودة إلى مقعده.

استمر هذا الاختبار لما يقارب النصف ساعة... واحدًا تلو الآخر، حتى عاد الجميع إلى أماكنهم، وعم القاعة الصمت مجددًا.

ثم، بصوت واضحٍ وقوي، قال عين الذئب وهو يسحب نفسًا أخيرًا من سيجارته الفاخرة:

- "الكل هنا سليم يا فاروق بيك".

ساد ارتياح خفي في القاعة، لكنني كنت لا أزال مذهولًا. لم يكن هذا اختبارًا عاديًا، ولم يكن هذا الرجل عاديًا... بل كان شيئًا آخر تمامًا.

سحب فاروق بيك نفسًا عميقًا آخر من سيجارته، ثم زفر الدخان ببطء، ملامحه جامدة كالصخر، لا توحي بشيء، حتى انحنت زاوية فمه بابتسامة باردة، وقال بصوت هادئ لكنه ثقيل الوَطأة:

- "وهذا... الخبرُ السيئ".

تبادل الحاضرون النظرات، يدركون أن القادم لن يكون سهلًا. أطفأ فاروق بيك سيجارته في المنفضة أمامه، ثم شبك أصابعه فوق الطاولة، وقال بنبرة أكثر جدية:

- "بعد أن تأكدت من وفائكم، حان الوقت لأطرح عليكم أخطرَ عمليةٍ ستشهدها عصابتنا منذ تأسيسها... هذه العملية، إما سترفعنا إلى ما فوق السماء، أو ستدفننا جميعًا تحت سابع أرض".

ساد الصمت في القاعة، الجميع كان مستعدًا لسماع التفاصيل، لكن فاروق بيك فاجأهم عندما أمال رأسه قليلًا وابتسم بخبث، ثم قال:

- "لكن، قبل أن أخوض في التفاصيل... دعوني أكون ديمقراطيًا قليلًا".

ارتفعت بعض الحواجب دهشة، هل يتحدث فاروق بيك عن الديمقراطية؟ هذا الرجل الذي لم يعرف سوى القوة والدم، هل قرر فجأة منح الحرية والاختيار؟

صمت للحظة، ثم أكمل بصوت أكثر حزمًا:

- "بما أن هذه العملية هي الأخطر، فسوف نقوم بتصويت... من يريد الانضمام إليّ والمخاطرة معي، فليرفع يده ويبقى في مقعده... أما من يريد الانسحاب، فليبقِ يديه منخفضة، وسأعتبره منسحبًا نهائيًا من العصابة، ليعيش حياةً طبيعية، وكأننا لم نعرفه ولم يعرفنا".

ساد التوتر في الغرفة، بعضهم بدا غير متأكد، والبعض الآخر كان يزن كلماته بعناية. للحظات، لم يتحرك أحد، ثم، شيئًا فشيئًا، بدأت الأيادي ترتفع. واحدًا تلو الآخر، تعالت أصواتهم بصوت واحد:

- "نحن معك، يا فاروق بيك".

الجميع رفع يده... الجميع باستثناء امرأة واحدة كانت تجلس في آخر القاعة.

كانت آسيا، امرأة في الأربعين من عمرها، ملامحها متوترة، وعيناها تخفيان خوفًا عميقًا. عندما لاحظها فاروق بيك، حدّق بها لبضع ثوانٍ، ثم قال بنبرة هادئة لكنها تحمل شيئًا خفيًا:

- "هل أنتِ متأكدة يا آسيا أنكِ تريدين ترك العصابة؟".

ترددت آسيا للحظة، لكنها أخذت نفسًا مرتجفًا وقالت بصوت متوتر:

- "نعم، يا فاروق بيك... أعتقد أنني وصلتُ إلى الحد الذي لا أستطيع تجاوزه".

ساد الصمت لثوانٍ، لم يتحرك أحد، لم ينبس أحدٌ ببنت شفة.

ثم، ولأول مرة منذ زمن طويل، ظهر على وجه فاروق بيك شيء يشبه اللّطف، أو هكذا بدا، وهو يبتسم ابتسامة دافئة غير معتادة، وقال بصوت هادئ:

- "حسنًا... يمكنكِ الخروج الآن".

توسعت عينا آسيا قليلًا بدهشة غير مصدقة، وكأنها لم تتوقع أن يكون الأمر بهذه السهولة. أومأت برأسها بامتنان، ثم قالت بصوت خافت:

- "شكرًا، شكرًا لك، فاروق بيك".

نهضت من مقعدها، وتحركت بحذر نحو الباب، حيث وقف الحارسان ببدلاتهما السوداء، فتحا الباب بهدوء، وتقدمت آسيا للخروج. كانت قد خطت أولى خطواتها خارج القاعة...

ثم...

دوى صوتُ طلقةٍ نارية.

اهتزت القاعة تحت وطأة الصوت المفاجئ، وانتفض الجميع في مقاعدهم. تجمدت آسيا للحظة، لم تستوعب ما حدث، قبل أن تترنّح للأمام وتسقط على الأرض.

رصاصةٌ ذهبية أخرى... اخترقت ظهرها، لتتمدد جُثتها بلا حياة على العتبة.

في تلك اللحظة، تعالت قهقهة بصوت عالٍ، قهقهة مليئة بالسخرية والوحشية، تبعها صوت فاروق بيك وهو يقول، وسط ضحك متواصل:

- "وكأنكم صدقتم أنني سأكون ديمقراطيًا؟!".

كان يهتز من الضحك، كما لو كان قد استمتع بهذا المشهد بالكامل. أما بقية الحاضرين، فقد غمرهم الذهول والرعب. لم يجرؤ أحد على قول شيء.

صفق فاروق بيك بيديه، فأومأ الحارسان برأسيهما، تحركا نحو جثة آسيا، أمسكوا بها بلا اكتراث، وسحبوا جسدها البارد نحو النافذة، ثم...

ألقوا بها من هناك، تمامًا كما فعلوا بجثة عرفات من قبل.

بدا الأمر وكأنها لم تكن سوى قمامة زائدة في الغرفة.

استجمع فاروق بيك أنفاسه، ابتسم وهو يشعل سيجارته الجديدة، سحب منها نفسًا عميقًا، ثم زفر الدخان بهدوء، قبل أن يقول بنبرة ثابتة:

"والآن... دعوني أخبركم عن العملية المصيرية".

@N_BHS2

(الفصلُ الخامس)
(رأس أبي الهول)

(وَجه التّاريخ)

ساد الصمتُ في القاعة، صمتٌ ثقيلٌ كأنّ الهواء أصبح أكثر كثافة، وكأن الجدران نفسها تنتظر ما سيقوله فاروق بيك. كان الجميع يراقبه بترقّب، أنظارهم متوترة، وأيديهم إما معقودة أمام صدورهم أو مستريحة على أسلحتهم بقلقٍ خفي. في هذه العصابة، لا شيء يقال عبثًا، وكلّ كلمةٍ تخرج من فم فاروق بيك تحمل ثقلًا لا يستهان به.

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته الفاخرة، ثم أخرج الدخان ببطء، وكأنه يمنحهم لحظة أخيرة قبل أن يُسقط عليهم القنبلة:

- "سَنبيع رأسَ أبي الهول".

مرّت لحظةٌ من الجمود التام. ثم... كأن الصدمة ضربت الجميع في آنٍ واحد، توسعت الأعين، وجحظت الوجوه، وانطلقت همسات غير مفهومة، بعضهم شهق، والبعض الآخر كتم أنفاسه، كأن فاروق بيك قال للتو أنه سيبيع الشمس نفسها.

حتى القدم الذهبية، الذي كان متكئًا بكسل على الكرسي، يراقب الاجتماع بعين واحدة مغلقة، فتح عينيه الاثنتين دفعة واحدة، وعدّل جلسته فورًا، قائلًا بصوت مصدوم لكنه يحمل في طيّاته لمحة من الإثارة:

- "هل ما سمعته صحيح يا فاروق بيك؟! كيف بحقّ الجحيم سنفعلها؟!".

ابتسم فاروق بيك ابتسامة صغيرة، وأدار السيجارة بين أصابعه قبل أن يجيب بصوته الهادئ المعتاد:

- "لأكون دقيقًا... لن نبيع الرأس كله، بل سنبيع جزءًا منه فقط".

توقّف للحظة، ثم أضاف وهو يرفع إصبعه مشيرًا إلى عينيه:

- "سنبيع إحدى عينَيه".

كأن القاعة كلها امتصت نفسها دفعة واحدة، وكأن العقول توقفت للحظة تحاول فهم هذه الفكرة المستحيلة.

لكن حين نطق فاروق بيك بالكلمة السحرية التالية، انقلبت تعابير الجميع من الذهول إلى الطمع، من القلق إلى الجشع:

- "الزبون هذه المرة ليس فردًا، وليس عصابة... بل دولة. وكل فرد منكم سيحصل على خمسين مليون دولار بعد إنجاز المهمة".

لمع الجشع في أعينهم. تغيرت الأجواء في القاعة بالكامل، وظهر الحماس في نظراتهم، ذلك الحماس الذي رآه فاروق بيك جيدًا، وجعله يبتسم برضا وهو يضيف بصوت خافت، لكنه يحمل ثقةً لا تقبل الجدال:

- "يبدو أنني حصلت على اهتمامكم، إذًا دعوني أخبركم كيف سنفعلها".

تحرّك نحو الطاولة، أطفأ سيجارته في المنفضة، ثم وضع يديه على سطح الطاولة وقال:

- "لدينا مشكلة، والأهم من ذلك، لدينا حل".

نظر إليه الجميع باهتمام، فواصل الحديث:

- "المشكلة: لا يمكننا الاقتراب من أبي الهول دون إثارة الشكوك. الحل؟ سنُشعل حريقًا... ليس أي حريق، بل واحدًا كفيلًا بإغراق المنطقة كلها في الفوضى".

- "حريق؟!". كرَّرَ القدم الذهبية بصوت مصدوم.

- "تمامًا". أكمل فاروق بيك. "سنفتعل حريقًا ضخمًا في وحدة الأمن الخاصة بحراسة الأهرامات. النيران ستلتهم المكان، وستنتشر الفوضى، وستُستدعى فِرق الإطفاء من كل أنحاء القاهرة".

توقف لحظة، ثم أضاف بابتسامة خبيثة:

- "ومن بين رجال الإطفاء... سنكون نحن".

ساد الصمت مرة أخرى، لكنه هذه المرة لم يكن صمتَ خوف، بل صمت إدراك بأن الخطة بدأت تتّضح، وأن الجنون الذي كان يراه الجميع مستحيلًا... بدأ يبدو منطقيًا.

تابع فاروق بيك، بينما كان بعض الرجال يتبادلون النظرات التي تحمل مزيجًا من الدهشة والإعجاب:

- "سنستخدم عربات الإطفاء، المجهزة بسلالم طويلة. سنرتدي زي رجال الإطفاء، ومع انشغال الجميع بالحريق، سنصعد عبر السلالم إلى وجه أبو الهول، نقتلع جزءًا صغيرًا من عينه، ونستبدله بحجر مطابق في الشكل واللون، بحيث لا يلاحظ أحد الفارق".

رفع أحد الرجال حاجبه متسائلًا:

- "وكيف سننقل هذه القطعة الثمينة؟!".

ابتسم فاروق بيك ابتسامة مليئة بالدهاء، وأجاب:

- "داخل عربات الإطفاء نفسها، بين المعدات، حيثُ لن يخطر لأحد أن يبحث هناك".

كان الحاضرون قد وصلوا إلى قمة حماسهم. بعضهم لم يعد قادرًا على إخفاء ابتسامته، وبعضهم الآخر بدأ يتخيل ما سيفعله بخمسين مليون دولار.

لكن القدم الذهبية، رغم حماسه الواضح، قال باندهاش:

- "غدًا؟! سنفعلها غدًا؟!".

ضحك فاروق بيك، وأجاب بثقة مطلقة:

- "غدًا... سنسرق جزءًا من التاريخ".

رنّ جرس الساعة العتيقة في زاوية القاعة، معلنًا أنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

وكأن هذا كان إشارة النهاية، وقف الجميع دفعة واحدة، التفتوا إلى فاروق بيك، وانحنوا له في احترام، ما عدا عين الذئب، الذي اكتفى بالوقوف بلا انحناء، كعادته.

فتح الحراس الباب، وغادر الرجال صفًا واحدًا، تاركين القاعة خالية تقريبًا.

لم يبقَ سوى أنا، والقدم الذهبية، وإلياس، وفاروق بيك.

وقف فاروق بيك أخيرًا، ألقى سيجارته أرضًا وسحقها بحذائه، قبل أن يتقدم إلياس ويضع معطفًا أسود طويلًا على كتفيه. استدار، وهمّ بالخروج، فتبعته، لكنني لاحظت أن القدم الذهبية لم يتحرك.

ظل جالسًا، عيناه جاحظتان، لا يتكلم، لا يومئ، لا يتحرك. كأنه في حالة من الذهول المطلق... لكنه كان واعيًا تمامًا.

خرجت من القاعة، توجهت إلى غرفتي في القصر، استلقيت على السرير، وبدأت أفكر... أفكر في هذه الخطة الجنونية، وكيف أن غدًا، خلال ساعات قليلة...

سنحطم أسطورة امتدت لآلاف السنين. لم تمضِ سوى دقائق حتى انزلقت في النوم، بينما في الخارج، كان القمر يراقب..

كان الليل أشبه بمحيطٍ أسود هائج، تتلاطم فيه الأمواج العاتية من الأفكار والمخاوف داخل رأسي. كنت مستلقيًا على سريري، أشعر أن هناك شيئًا خاطئًا، شيئًا لم أستطع تفسيره، وكأن الظلام نفسه يراقبني.

ثم رأيته.

الرجل ذو الملابس السوداء.

في زاوية الغرفة، عند الطرف البعيد، كان يقف رجل مُغطى بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه، وكأن الليل قد تجسد في هيئة بشرية. لم يكن وجهه واضحًا، لكنني شعرت بعينيه، نظرة تخترقني رغم أنني لم أرَ أي ملامح.

تسارعت أنفاسي، حاولت أن أتحرك، أن أصرخ، لكن جسدي لم يستجب. كنتُ مشلولًا تمامًا تحت وطأة تلك العيون الخفية التي ترمقني.

ثم جاء صوته.

- "اهرب، يا عمران... اهرب قبلَ فوات الأوان!".

كان صوته هادئًا لكنه مملوء بشيء لا يمكن وصفه، كأنه قادم من مكان لا ينتمي لهذا العالم. أردت أن أسأله، أن أفهم، لكن الكلمات لم تجد طريقها إلى لساني ثم استمر بترديد.

- "اهرب...اهرب!".

بدأ ينسحب إلى الخلف، يختفي رويدًا رويدًا حتى لم يبقَ منه شيء سوى الفراغ، ثم...

استيقظت.

جلست بسرعة، ألهث وكأنني كنت أغرق للتو. تحسّست وجهي، يدي، الغرفة من حولي، لأتأكد أنني ما زلت هنا. كان مجرد حلم، أليس كذلك؟!

لكن لا، لم يكن مجرد حلم.

كان تحذيرًا!

نهضت بسرعة وأمسكت هاتفي، اتصلت بأمي، ويدي ترتجف فوق الشاشة.

رنّ الهاتف لثوانٍ، قبل أن يأتي صوتها الناعس:

- "عمران؟ ما الأمر؟".

- "أمي، اسمعيني جيدًا، لا وقت للشرح. جهزي أغراضكِ أنتِ وإخواني، سنغادر الليلة".

- "ماذا؟ عمران، هل جُننت؟ الساعة الثالثة صباحًا!".

- "أعرف، أعرف... فقط افعلي ما أقول، أرجوكِ!".

صمتت هناك للحظات، لكنها عرفت أنني لا أمزح.

- "إلى أين سنذهب؟".

- "سأجد مكانًا، فقط استعدوا وسأتصل بكم قريبًا".

أغلقت الهاتف، شعرت للحظة أنني أمسكت بمفتاح النجاة، أنني قد أخرج من هذا المستنقع القاتل قبل أن أُدفن فيه.

لكن... كنت مخطئًا.

رن الهاتف مجددًا. أمي.

لكن هذه المرة، لم يكن صوتها هادئًا أو ناعسًا.

- "عمران... النجدة!!!".

ثم...

انقطع الاتصال.

ظللت أحدق في الشاشة، أضغط على إعادة الاتصال، لكن الهاتف كان مغلقًا. شعرت بقلبي يتوقف للحظة، ثم عاد ينبض بجنون.

لم يكن أمامي خيار.

ارتديت معطفي على عجل، خرجت من غرفتي بسرعة، أتجه مباشرة إلى مكتب فاروق بيك.

دفعت باب المكتب بقوة، اقتحمت الغرفة دون إذن، دون تفكير. لم أهتم بالحراس، لم أهتم بالقواعد، لم أهتم حتى بحياتي في هذه اللحظة.

كان يجلس هناك، وسط الظلام الذي يحيط بالمكتب الفخم، على كرسيه الجلدي الأسود، يعبث بسيجارته كما لو كان ينتظرني.

عندما رآني، رفع حاجبه قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة خالية من أيّ دفء.

- "وصلت بسرعة يا عمران!".

لم أستطع كبح نفسي، تقدمت نحوه بخطوات غاضبة، ضربت المكتب بكل قوتي حتى اهتزت الأوراق الموضوعة عليه.

- "أين عائلتي؟!".

نظر إليّ بهدوء وكأنني طفل يصرخ بلا فائدة، ثم أطفأ سيجارته ببطء مثير للأعصاب.

- "عائلتك بأمان... لكن هذا يعتمد عليك حتى الآن".

تجمّدت مكاني. شعرت وكأن الأرض بدأت تبتلعني ببطء.

- "ماذا فعلت بهم؟!".

وقف فاروق بيك من كرسيه، اقترب مني حتى كاد يهمس في أذني، ثم قال بصوت منخفض لكنه محمّل بالتهديد:

- "رجالي عندهم الآن، وأنت تعرف ما الذي يعنيه هذا".

كنت أسمع نبضات قلبي تصرخ في أذني.

- "إذا حاولت الهرب مجددًا، وإذا لم تُنفّذ المهمة كما هو مخطط لها؛ سأجعلهم يختفون من الوجود".

ثم عاد إلى كرسيه، أشعل سيجارته مجددًا، نفث الدخان ببطء وكأنني لا شيء، وقال:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- "والآن، اذهب وتجهز، لدينا عمل سنُنجزه!".

لم يكن هناك مهرب.

لم يكن هناك خلاص.

لقد سقطتُ في الفخ، ولم يكن لدي خيار سوى السير حتى النهاية.

الليلةُ التي سرَقنا فيها التاريخ

كنتُ جالسًا على أرض غرفتي، ظهري مسنود إلى الجدار، أنفاسي ثقيلة وكأن الهواء من حولي صار أقلّ ممّا ينبغي. نظرت إلى يديّ، ارتجافٌ خفيف لا يكاد يُرى، لكنه كان كافيًا ليذكّرني بأنني ما زلتُ أملك قلبًا يخاف، رغم كل شيء. كنت أفكر في عائلتي، كيف أوصلتهم إلى هذا الوضع؟ كيف صاروا رهائن في لعبة لم يخترها أحدٌ منهم؟ لم يكن هناك خيار الآن، لا مجال للعودة، فقط طريق واحد إلى الأمام، طريقٌ مرسومٌ بيد فاروق بيك، وعليّ أن أسير فيه حتى نهايته، أيًا كانت تلك النهاية.

أغمضتُ عيني للحظة، لكن صورة فاروق بيك ارتسمت في ذهني على الفور، عيناه المليئتان بالخبث، صوته الواثق، ذلك الغموض الذي يحيط به كأنه ليس رجلًا من هذا العالم، بل وحشٌ يتغذى على الفوضى. كنت أعرف أنه لا يترك شيئًا للصدفة، وأن كل خطوة من خطواتنا محسوبة بدقة. لكن حتى مع ذلك، لم أكن أتوقع ما سيحدث الليلة.

وسط دوامة الأفكار التي غرقت فيها، جاءني صوتٌ أيقظني من شرودي. طرقاتٌ على الباب، قوية، حاسمة، كأن الطارق لا يسأل إن كان مسموحًا له بالدخول، بل يُعلن وجوده بالقوة. رفعت رأسي وقلت بصوتٍ متعب:

- "ادخل".

فتح الباب، ليظهر إلياس، لكن هذه المرة لم يكن يرتدي بدلته السوداء الأنيقة المعتادة، بل كان في زيّ رجال الإطفاء، ممسكًا بواحدٍ آخر بيده، ثم ألقاه أمامي على الأرض ببرود وقال:

- "خُذ هذا. البَسه. بعد عشر دقائق، توجه إلى مرآب السيارات، أنا وفاروق بيك في انتظارك".

ثم أغلق الباب ورحل، تاركًا إيّاي في مواجهة حقيقةٍ جديدة: الليلة ليست ليلة عادية.

أمسكتُ بلباس الإطفاء، شعرتُ بثقله بين يديّ، كأنه سترةٌ حديدية، لكنه لم يكن ثقيلًا بسبب القماش، بل بسبب ما يعنيه. كنتُ أعلم أن هذه الليلة ستغير كل شيء، لكن لم أكن أعلم إلى أي مدى.

ارتديتُ الزي، شعرتُ به وكأنه جلدٌ جديد يُفرض عليّ، ثم أخذتُ أغراضي وتوجهتُ إلى المرآب الكبير كما طُلب مني. وما إن وصلت حتى تجمدت في مكاني، فالمشهد الذي كان أمامي لم يكن متوقعًا بأي حال.

عشرات السيارات الحمراء الكبيرة، جميعها مصفوفة في انتظام دقيق، وعشرات الرجال، جميعهم يرتدون زيّ رجال الإطفاء ذاته، يتلقون التعليمات من رؤسائهم كما لو كانوا فرقةً عسكرية. لم أكن أدرك أننا بهذا

العدد، لم أكن أعلم أن فاروق بيك قد حشد هذا الكم الهائل من الرجال لهذه العملية.

وسط هذا الفوضى المنظمة، كنتُ الوحيد الذي لا يعرف إلى أي سيارةٍ ينتمي، حتى سمعتُ صوتًا يناديني من إحدى السيارات في المقدمة:

- "تعال هنا يا عمران".

كان إلياس، جالسًا في مقعد السائق، وإلى جانبه رجلٌ يرتدي خوذة الإطفاء، لم أرَ ملامحه بسببها، لكنه لم يكن بحاجة إلى إظهار وجهه، فقد عرفتُ من هو على الفور.

ركبتُ في المقعد الخلفي، فتم إغلاق الباب الكهربائي بإحكام. التفتَ إلياس إلى الرجل الجالس بجانبه، وقال بصوتٍ هادئ لكنه يحمل في طياته توترًا خفيًا:

- "كل شيء جاهز، يا فاروق بيك".

رفع الرجل يده ببطء، ونزع الخوذة، ليكشف عن ملامحه التي تحمل تلك الابتسامة الخبيثة المعتادة، النظرة الواثقة التي لا تهتز، وكأنه يعرف تمامًا أن ما سيفعله الليلة...

أخرج فاروق بيك جهازه اللاسلكي وقال بصوته الثابت:

- "هل الجميع في مواقعهم؟".

خرجت ردودٌ متزامنة من الجهاز بصوتٍ واحد:

- "نعم، سيدي!".

عادت الابتسامة إلى وجهه، ثم أخرج جهازًا صغيرًا من جيبه، يشبه أجهزة التحكم عن بعد، يحمل في وسطه زرًا أحمر لامعًا، ثم ببرود ضغط عليه.

في اللحظة ذاتها، اهتزّت الأرض تحتنا، دوّى انفجارٌ مدوٌّ في الأفق، وبعد لحظات، لمع وهج نارٍ برتقالية في السماء، ليعلن بداية الفوضى.

- "لقد بدأنا".

فتح فاروق بيك هاتفه، وشغل إحدى قنوات الأخبار. لم تمضِ سوى لحظات حتى ظهر الخبر العاجل: "انفجارٌ ضخم في وحدة الأمن المسؤولة عن الأهرامات، الحريق يلتهم المنطقة بسرعة!".

أغلق فاروق بيك الهاتف، ثم أمسك بجهاز اللاسلكي مجددًا وقال بصرامة:

- "تحرّكوا الآن!".

انطلقت السيارات كالسيل الجارف، عشرات المركبات الحمراء تشقّ طريقها وسط شوارع القاهرة، كأنها جيشٌ متخفٍّ، لا أحد يشك بأننا لسنا رجال إطفاء حقيقيين، فالحريق كان حقيقيًا، والفوضى كانت حقيقية.

عندما وصلنا إلى الموقع، كان المشهد أشبه بنهاية العالم. النيران تتراقص كوحوشٍ متعطشة، تلتهم الأبنية والسيارات، تصبغ السماء باللون الأحمر، والدخان الأسود يرتفع كجدارٍ هائلٍ يخفي النجوم. العمال يركضون في كل الاتجاهات، الصراخ يملأ المكان، والفوضى تعمّ كل شيء.

لكننا لم نكن هناك لإنقاذ أحد.

شقّت سياراتنا طريقها حتى وصلنا إلى التمثال العظيم، أبو الهول، الذي كان يقف بصمته العريق، لا يبالي بكل ما يحدث حوله، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ آلاف السنين. خلفه، كان البدر معلقًا في السماء، يسلط ضوءه الفضيّ على ملامحه الغامضة، يزيده هيبةً ورهبةً.

تجمعت سيارات الإطفاء حوله في دائرةٍ محكمة، وبدأ رجال العصابة بالخروج، يصطفّون وكأنهم جيشٌ في ساحة معركة، كل وحدة يقودها أحد القادة الذين كانوا في الاجتماع.

تقدّم فاروق بيك نحو المنتصف، رفع يده عاليًا، ثم صرخ بصوتٍ واثق:

- "اليوم... نصنع التاريخ!".

ضجّ المكان بالهتاف، الجميع كانوا في ذروة الحماس، كأنهم جنودٌ يستعدون لمعركةٍ مقدسة.

ثم رفع يده مجددًا، فعمّ الصمت. التفتَ إلى الجميع بعينيه القاتلتين، ثم سأل بصوتٍ حاد:

- "أين القدم الذهبية؟".

شقّ القدم الذهبية طريقه بين الحشود، خلعَ خُوذته وكشف عن وجهه الصارم، ثم قال بثقة:

- "أنا هنا، فاروق بيك".

أشار إليه فاروق بيك بالصعود إلى السلالم الممتدة نحو وجه أبي الهول، وهناك، عند عينه اليمنى، بدأ الحفر بأداةٍ صغيرةٍ بدت وكأنها خرجت من مختبرٍ سريّ.

وقفتُ أراقب المشهد في صدمة، كل شيء كان يجري بانسيابيةٍ غريبة، كأن العالم كله كان ينتظر هذه اللحظة.

لم يكن هذا مجرد سرقة... بل كنا نسرق قطعةً من الزمن نفسه.

قطع شرودي صوت فاروق بيك، وهو يلتفت إليّ بابتسامةٍ ماكرة:

- "لا تقف هكذا دون فائدة، يا عمران. تعال إلى هنا".

شعرتُ برجليّ تتجمدان، لكنني لم أملك خيارًا... مشيتُ نحوه، وأنا أعلم أن هذه الليلة... لن تُنسى أبدًا.

تقدمتُ نحو فاروق بيك، الذي كان يقف وسط الحشد كإمبراطورٍ يشرف على جيشه. صفق بيديه بصوتٍ مسموع، فتقدم إلياس من بين الرجال، يحمل صندوقًا خشبيًا كبيرًا وضعه على الرمال بجانب إحدى سيارات الإطفاء.

نظر فاروق بيك إليّ بابتسامة واثقة، ثم قال بصوته الثابت:

- "داخل هذا الصندوق نوعٌ خاص من الطين، مصمم ليُطابق شكل الطين الموجود على الأهرامات ورأس أبي الهول. ستأخذ منه وتساعد القدم الذهبية عندما ينتهي من استخراج جزء من عين أبي الهول".

أومأتُ برأسي دون أن أجادل، ثم انحنيتُ لرفع الصندوق، كان أثقل مما توقعت، أو ربما كان عقلي هو من يثقل كاهلي... شعرت بأنني لا أحمل صندوقًا من الطين، بل قطعةً من التاريخ، مسؤوليةً ثقيلةً تتجاوز مجرد السرقة.

بدأتُ أصعد السلالم الحديدية التي امتدت على طول التمثال العظيم. كلما ارتفعتُ، زاد وضوح المشهد أمامي. التفتُ إلى الخلف، فرأيت القاهرة تمتد في الأفق، أضواؤها البعيدة تتلألأ كنقاطٍ صغيرة، لكنها لم تكن تضيء المشهد بقدر ما كانت تراقب بصمتٍ ما يحدث.

أما حولي، فقد كان المشهد أشبه بجحيمٍ صنعناه بأيدينا. النيران مشتعلة في كل مكان، ألسنتها تتراقص بجنونٍ، تعكس ظلالًا غامضة على الرمال والتماثيل القديمة. ارتفع الدخان الأسود بكثافة، وبدأ يتماوج مع الهواء، يطمس السماء ويخنق النجوم. وسط هذا كله، وقفت الأهرامات شامخةً، كأنها تراقب ما يجري بحزنٍ وصمت. كانت تبدو كمخلوقاتٍ حجريةٍ قديمة، شاهدةً على قرونٍ من الزمن، والآن تشهد على أعظم سرقةٍ في التاريخ.

وأمام كل هذا، كان أبو الهول، جاثمًا بصمته العريق، وكأنه يعلم أن الليلة لن تمرّ دون أن يترك الزمن ندبةً جديدةً على جسده.

عندما وصلتُ إلى الأعلى، كان القدم الذهبية منهمكًا تمامًا في عمله. وقف منحنيًا فوق عين أبي الهول اليمنى، ممسكًا بأداته الغريبة، التي بدت وكأنها تنتمي لمختبرٍ متطورٍ أكثر من كونها أداةً بدائيةً للسرقة. كانت يداه تعملان بدقةٍ غير عادية، كأنه لم يكن مجرّدَ لصٍّ، بل فنّانًا يمارسُ طقسَه المقدّس.

وقفتُ خلفه، ممسكًا بالصندوق، أراقب بصمت. كنت أستطيع سماع صوت الحفر الخفيف، وكأنه طعناتٌ صغيرةٌ في جسد التاريخ نفسه.

ومضت الدقائق... عشرة دقائق مرّت كأنها ساعة. ثم فجأة، دوّى صوته وسط اللهب والدخان، صوتٌ يحمل نشوة الانتصار المجنون:

- "لقد فعلتها! فعلتها!!".

ضحك بصوتٍ عالٍ، صوتٌ ممتلئٌ بالفخر والانبهار، كأنه لا يصدق أنه استطاع انتزاع جزءٍ من واحدٍ من أقدم التماثيل على وجه الأرض.

استدار نحوي، يده ترتجف من الحماس، وهو يحمل بين أصابعه قطعةً صغيرةً من حجر عين أبي الهول. كانت بحجم كفّ اليد، سطحها أملسٌ لكنه يحمل آثار الزمن، وكأنها سرٌ قديمٌ كُشف بعد آلاف السنين.

- "ضعها في الصندوق".

مددتُ يدي ببطء، أخذتُ القطعة الثمينة، وضعتها في الصندوق الخشبي بحذرٍ، ثم أعطيته الطين الخاص كما طلب.

لم يُضيع القدم الذهبية لحظةً واحدة. أخذ المادة الطينية، وبدأ في ترميم المكان الذي حفره، وكأنه لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق. كانت يداه تعملان بدقةٍ مدهشة، يضغط الطين في مكانه، يمرر أصابعه عليه ليجعله يبدو وكأنه جزءٌ طبيعيٌ من التمثال.

مرت نصف ساعة ونحن على هذا الحال، هو يرمم، وأنا أراقب، أفكر في مدى عبقرية هذه العصابة...

ابتسم القدم الذهبية مرة أخرى وطلب مني النزول...

نزلنا إلى الأسفل، وكانت الأجواء مليئة بالحماسة والترقب. الجميع يُحيينا ويرحب بنا وكأننا أبطال عائدون من معركة ظافرة. كان فاروق بيك يسير بجانبنا، يربّت على ظهري وظهر القدم الذهبية بفخر، وكأننا حققنا شيئًا عظيمًا.

كل شيء كان يسير وفقًا للخطة، لم يكن هناك مجال للخطأ. أخرج فاروق بيك جهازه اللاسلكي، رفعه إلى فمه بصوتٍ هادئ لكنه حازم، وأصدر أمره بوضوح:

- "الجميع، استعدوا للرحيل، أخمدوا جميع النيران".

لم تمضِ لحظات حتى بدأ الجميع في تنفيذ التعليمات بسرعة ودقة، كأنهم ترسٌ في آلة تعمل بإيقاع محسوب.

وسط صرخات النصر والهتافات المدوية، اجتاح المشهدَ صوتُ إطلاق نارٍ حادّ، كأنه مزّق الهواء نفسه. لم يكن مجرد طلقة واحدة، بل وابلٌ متتابعٌ من الرصاص. لحظاتٌ مرّت كأنها دهور، ثم...

بوووووم!!!

انفجرت إحدى سيارات الإطفاء في لحظةٍ مفاجئة، قاذفةً شظايا الزجاج والمعدن في كل اتجاه. تبعتها سلسلةُ انفجاراتٍ متتالية، وكأن جهنم نفسها انفتحت تحت أقدامنا. رأيت رجال العصابة يُقذفون في الهواء كدمًى بلا حياة، أجسادهم تحترق في وهج النيران المستعرة، بينما صرخات الألم تمتزج مع زئير اللهب.

أحسستُ بصدري يُضغط بعنف، لم أدرك إلا بعد ثوانٍ أنني أُصبت، شعرتُ بحرارةٍ لاذعةٍ في كتفي، ثم موجة ألمٍ جعلتني أترنح. نظرتُ إلى جانبي، كان فاروق بيك ملقىً على الرمال، جسده مغطىً بالغبار ووجهه مشوّهٌ بدماءٍ لم أميّز إن كانت دماءه أم دماء الآخرين. أما إلياس، فقد كان يضغط على جرحٍ في ذراعه، بينما القدم الذهبية كان يصرخ بجنونٍ:

- "هذه لعنة أبي الهول! هذه لعنة أبي الهول!!".

ركض فاروق بيك بجنون، يتعثر في الرمال، حتى اختبأ خلف كثيبٍ رمليٍّ، صرخ بصوتٍ متهدجٍ، مزيجٌ من الغضب والذهول:

- "ما الذي يحدث هنا؟! من فعل هذا؟!".

لحقتُ به مع إلياس والقدم الذهبية، وانبطحنا جميعًا خلف الرمال، نحتمي من الشظايا المتطايرة التي ملأت السماء كأسرابٍ من الخناجر النارية.

الدخان كان كثيفًا، ورائحة البارود ملأت أنفي، بينما لهبُ السيارات المحترقة رسم في السماء ظلالًا حمراءَ مخيفة، وكأن الأرض تمزقت وأصبحت تهذي بهلاوس الهيب.

كان القدم الذهبية ما زال يصرخ:

- "لعنة! هذه لعنة الفراعنة!!".

أما إلياس، فكان هادئًا كعادته، لم يتحرك، لم يرمش حتى، عيناه تراقبان المشهد بصمتٍ قاتل.

ثم... جاء الصوت.

- "هنا الإنتربول! المكان محاصر بالكامل! اخرجوا من خلف الكثيب وسلّموا أنفسكم الآن!".

كأنّ الزمن تجمّد للحظة.

نظرتُ إلى فاروق بيك، الذي تحولت ملامحه إلى شيءٍ لا يمكن وصفه، مزيجٌ من الجنون واليأس. ثم، وبشكلٍ غير متوقع، انفجر في ضحكٍ هستيريٍّ، قهقهاتٍ مجنونةٍ تردد صداها وسط اللهب والدخان. كان يضحك كما لو أنه أدرك لتوّه أن كل شيءٍ انتهى، أن اللعبة التي ظنّ أنه يتحكم بها قد انقلبت عليه.

أما القدم الذهبية، فقد جلس على الرمال وهو يهمهم كالمَحموم:

- "إنها لعنة أبو الهول... إنها النهاية...".

لكنني... كنت أشعر بشيءٍ مختلف.

الهدوء.

هدوءٌ غريبٌ اجتاحني وسط كل هذا الجحيم. لعلي أخيرًا سأجد خلاصًا من هذا الظلام، حتى لو كان خلف القضبان الحديدية.

في اللحظة التي كان فيها فاروق غارقًا في جنونه، أمسك إلياس بكتفيه، هزّه بعنفٍ:

- "فاروق بيك! يجب أن نهرب الآن!".

لكن فاروق لم يستجب.

صرخ إلياس في أذنه بقوّة:

- "أفِق يا أخي!".

توقّف فاروق فجأة. تجمد في مكانه، وكأن كلمة "أخي" أعادته إلى وعيه، نظر في عين إلياس، وابتسم بمرارةٍ وقال:

- "يا إلياس، لقد مرت سنواتٌ منذ آخر مرة ناديتني فيها بذلك!".

لكن إلياس لم يكن في مزاجٍ عاطفيٍّ، زمجر بغضبٍ غير معتادٍ:

- "ليس وقت العواطف الآن! هناك من قام بخيانتنا! علينا أن نخرج من هنا قبل فوات الأوان!".

مسح فاروق وجهه ببطء، تمتمَ لنفسه وكأنه يحاول استيعاب ما حدث:

- "خائن.. نهرب؟!".

ثم، جاءت صافرات الشرطة، وتبعتها أصوات رجالٍ يقولون بحزمٍ:

- "نكرر! المكان محاصر! لا مجال للهَرَب! سلموا أنفسكم الآن!!".

وهنا... لمعت الفكرة في عقل فاروق.

نظر إلى إلياس وقال بصوتٍ حازم:

- "اسمعني جيدًا، ادفن نفسك في الرمال، لا تتحرك حتى يختفي الجميع!".

إلياس تردد للحظة:

- "لكن...".

فاروق صرخ:

- "نفّذ ما أقول!!!".

أومأ إلياس دون اعتراض، وبدأ يدفن نفسه بسرعةٍ تحت الرمال، بينما التفت فاروق نحوي فجأةً وقال بابتسامةٍ خبيثةٍ:

- "أنا آسف، يا عمران".

قبل أن أفهم ما يقصده، أمسك بي بقوةٍ من رقبتي، شدّني نحوه، وضع مسدسه الذهبي على رأسي، ثم رفع هاتفه واتّصل بشخصٍ ما وقال:

- "إذا لم أتصل بك خلال عشر دقائق؛ نفّذ ما أمرتك به".

ثم أغلق الهاتف، ووضعه في جَيبه، وسحبني للخارج، صارخًا بصوتٍ مدوٍّ:

- "يا رجال الإنتربول! إذا كنتم تريدون أن يبقى هذا الفتى على قيد الحياة، دعوني أخرج بسلام! وإلا سأقتله أمامكم الآن!".

كان الضوء القاسي للكشافات يخترق الظلام الحالك، يعكس ظلالًا متراقصة على الرمال وكأنها أشباحٌ تراقب المشهد بصمتٍ جنائزي. أصواتُ أجهزة اللاسلكي تتداخل مع الأوامر المقتضبة التي يطلقها رجال الإنتربول، فيما كانت البنادق مُصوبة نحونا دون أن يُطلق منها رصاصٌ واحد. كنت أشعر بقوة قبضة فاروق بيك على عنقي، أنفاسه الحارة تلسع أذني، وضحكته المتهكمة تتردد كصدى بعيد في رأسي.

- "سلم نفسك، فاروق. انتهى الأمر".

صوت الضابط كان هادئًا، لكنه يقطر حزمًا، وكأنه يعرف مسبقًا أن هذا الرجل لن يخضع بسهولة. فاروق لم يكن رجلًا يُؤمر، لم يكن يومًا ممن يقبلون بفكرة السقوط.

ضحك، ضحكة خبيثة، ثم قال بصوتٍ لا يخلو من جنون:

- "أنا لا أحب تكرار كلامي. أمامكم خياران فقط: إما أن تدعوني أخرج من هنا بسلام، أو أشوّه وجه هذا الفتى برصاصة أمامكم وأقتل عائلته لاحقًا".

عائلتي؟!

لم أكن أتوقع أن تصل الأمور إلى هنا. شعرت كأن الدم يتجمد في عروقي. كل شيء كان في خطر، ليس حياتي فقط، بل حياة أولئك الذين لم يكن لهم ذنب في هذه اللعبة القذرة. الغضب اجتاحني كعاصفة هوجاء، حاولت الإفلات من قبضته، لكن يده كانت محكمة كالأصفاد، جاعلة مني رهينة لا حول لها ولا قوة.

في تلك اللحظة، لم يكن خوفي على نفسي، بل على من هم خارج هذا المشهد، بعيدون عن رائحة البارود وعن هذه الرمال التي ستشهد على نهاية أحدنا الليلة.

لكن الغضب وحده لم يكن كافيًا.

رجال الإنتربول كانوا يتشاورون، نبرة أصواتهم توحي بالتردد. لم أكن بحاجة إلى سماع ما يقولونه، لكنني استطعت التقاط عبارة واحدة:

- "لا يُمكننا قتله... القيادة تريد التّحقيق معه".

الوقت يمر... أو ربما توقف تمامًا.

في وسط الفوضى، وسط توتر الأصابع فوق الزناد، وسط ضربات قلبي التي تتسارع كطبول حربٍ أخيرة، سمعت شيئًا لم يكن ينتمي لهذا المكان.

الهمسات

"السلام... الرحمة... البركة...".

في البداية، ظننت أنني أتوهّم. لكن لا، الصوتُ كان واضحًا، كانت نفس الهمسات التي اعتدت على سماعها...

رفعت رأسي، بحثت بعيني عن سبب لظهورها، عندها رأيته.

في تلك اللحظة، تجمّدت كل الحواس، وبدأ الزمان يَتباطأ وكأن كل شيء حولي أصبح في حالة سكون قاتل. عيني لم تترك المكان، وهي تتبع كل حركة، وكل تفصيل صغير يشكل جزءًا من هذا المشهد الغريب الذي كان يتكشّف أمامي.

نعم، كان هناك.

في الأعلى، فوق رأس أبي الهول، حيث السماء كانت تمزج بين الظلال والضوء، كان عين الذئب مستلقيًا، جسده يتناغم مع الصخور الجافة والرياح العاتية التي كانت تقتلع الرمال من الأرض. لم يكن هناك ما يشير إلى حركة غير طبيعية في المدى البعيد، إلا أن عينيه الكحيلتين اللامعتين كشفتا عن الحكاية كلها. كانت عيناه نافذتين، تتبعان كل حركة وكأنهما تقرآن ما يدور في عقولنا قبل أن يحدث.

ابتسم ابتسامة مظلمة، بينما أنيابه الطويلة كانت تلمع في ضوء القمر الخافت، مشهد مرعب ومثير في آن واحد. جلوسه على تلك القمة كان يتّسم بالتخفي البارع، وكأن جسده جزء من المناظر الطبيعية المحيطة، لا يمكن اكتشافه إلا بعد فوات الأوان.

وكان إلى جانبه، على يمينه، امرأة بشعر أشقر طويل، ينزلق بين يديها الضوء الذي ينعكس من القمر، وملامحها الحادة التي تكشف عن برودة لا يحيطها شيء من الدفء. عيناها الزرقاوان تشعان بالقوة والتصميم، كأنها تراقب العالم من علو، لا تشوبها شائبة، وكأنها تقيم حكمًا لا رحمة فيه. على يساره، امرأة أخرى، كان شعرها الأشقر أقصر قليلا، لكن وجهها كان يحمل تعبيرًا لا يمكن قراءته بسهولة، كان وجهها متماسكًا، كأنها تقيم حسابات معقدة.

كل شيء كان يدور في فلك واحد، وكنت أدرك في تلك اللحظات أن هذا لم يكن مجرد تجمع عادي، بل كان عين الذئب نفسه الذي كان يقف وراء إفشاء مخططاتنا. كان يقبع هناك، في الظلام، يتسلل بأفعاله إلى كل زاوية من هذا العالم المخيف.

"هل أنت متأكد أنك تريد أن تفعلها؟". قالت المرأة التي على يمينه، وكانت كلماتها خافتة ولكنها محملة بشيء من التردد. ربما كانت تشكك في مدى صحة هذا القرار.

ثم جاءت كلمات المرأة التي على يساره، وكانت حاسمة: "أوامر القيادة واضحة. لا مجال للعواطف. إذا خالفتها... لن تُحاسب وحدك، بل ستُحاسب الكتيبة بأكملها".

لكن عين الذئب لم يهتم بكل ذلك، وكان صمته قاتلًا. لم يكن هناك مجال للحديث، فكل ما قالوه كان لا معنى لها في ظل الهدوء الرهيب الذي ساد المكان. وفي النهاية، همس بصوت منخفض، كان يكاد لا يُسمع لكني كنت مستمعًا لكل شيء بطريقة ما:

("لكن هذا ابن علي").

انطلقت الرصاصة من فوهة بندقية القنص كالشبح الذي لا يُرى، لكنها كانت سريعة بما يكفي لتخترق الزمن وتدخل إلى قلب الفاجعة. الصوت الذي أحدثته كان زلزالًا في أعماق المكان، حيث توقفت فيه حتى الأنفاس، وكأن الكون بأسره قد اختار أن يشهد هذه اللحظة المميتة التي حانت دون سابق إنذار. لم يكن الصوت سوى نعيًا صامتًا، يكتب نهاية واحدة من أكثر الأساطير الظلامية التي عرفتها الأرض.

حين استقرت الرصاصة في جبهة فاروق بيك، كان الوقت قد قرر أن يظل في مكانه، لا يمر، لا يتحرك. فجأة، بدَت يداه ثقيلتين، ساقاه منهارتين، وكأن كل جزء في جسده أدرك أن الحياة قد انتهت. كانت

جبهته تتدلى، وعيناه اللتان لطالما كانتا تحملان بريق القوة والغطرسة، أصبحتا فارغتين، جاحظتين، مُحمَّلتين بألوان الذهول والندم. أُغشي عليه في لحظة، لكنه لم يسقط على الأرض دفعة واحدة، بل كما لو كان يحاول التمسك بشيء، بشيء من ذكرياته، من قوته. ومع كل ثانية تمر، كان جسده ينهار أكثر، حتى سقط على الرمال، لكن ليس كتلة جثة هامدة، بل كأيقونة للانكسار، للخراب الذي كان يعيشه في كل لحظة من حياته.

الدماء التي بدأت تنفجر من رأسه كانت كالنهر الذي يخرج عن مجراه، كأنها تروي قصة أسطورة موت رجل كان يظنّ أن الله لن يسلبه من الحياة. كانت قطرة تلو الأخرى تنساب على الرمال، مشكّلةً بركة من أحلامه التي تحطمت في لحظة. كان الدم يحاكي تلك المسارات التي سرقها على مر السنين من أجل أن يكون "إمبراطورًا" في عالمه المظلم. كانت تلك الدماء تكتب شهادة وفاته، وتكشف عن هويته الحقيقية؛ مجرد كائنٍ كان يسعى في الأرض فسادًا، يرفع نفسه فوق الجميع ويظن أن الزمن سيقف في صفّه إلى الأبد.

كان الموت بطيئًا، رغم أنه كان قد حسم مصيره. فاروق بيك، الرجل الذي حارب الظلام ليصبح جزءًا منه، الرجل الذي عاش في غياهب الفساد، ويعتقد أنه خالد، كان الآن جزءًا من الظلام نفسه. جسده الذي

كان يومًا رمزًا للقوة، أصبح الآن هشًا، يتساقط بين رمال مصر، المكان الذي لطالما حلم أن يصبح فيه سيدًا لا يُقهر.

نظرت إلى تلك الجثة التي كانت يومًا ما كتلة من القوة والعنف، وكنت أشعر بمزيج من العجز والرغبة في الهروب من هذه الحقيقة القاسية. لكن هناك درسًا في هذه النهاية المروعة. درسٌ عن هشاشة القوة، وعن كيف أن الطغيان مهما امتدَّ، فإن زواله يكون أسرع من نسمة هواء عابرة. فاروق بيك، الذي ظنَّ أن السيطرة على العالم هي غاية الوجود، أصبح في لحظة واحدة مثالًا لكل الطّغاة الذين يعتقدون أنهم سيبقون خالدين في ذاكرة الزمن.

كانت الدماء التي تُلطّخ وجهه هي الدليل الأكبر على أن ليس كل من يحاول أن يصبح فوق البشر يستطيع أن يظلّ كذلك للأبد. في النهاية، لا أحد يظلّ فوق الموت. الكل راحل، لكن العبرَة تبقى.

(الفصل السادس)
(الرّصاصةُ الرّمادية)

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

(الوَعد)

اندفع رجال الإنتربول نحوي، يحيطون بي من كل جانب في سرعة غير مسبوقة وكبّلوني بالأصفاد الحديدية، وكأنهم كانوا في سباق مع الزمن. دفعتني حركة أحدهم إلى الأمام، وكنت أحسّ بنفسي أختنق من الرعب. سألوني على عجل: "من يوجد خلف الكثبان الرملية؟". لكنني لم أتمكن من الإجابة، فقد كان عقلي مشتتًا بين ما جرى وما سيحدث. ما استطعت أن أفعله كان أن أصرخ في وجوههم بكل ما تبقى لي من قوة، وأنا أتوسل إليهم، فحتى في هذه اللحظة، كنت أرى حياتي تتناثر كقطع الزجاج:

- "أرجوكم! اتصلوا برجال فاروق بيك، سيقتلون عائلتي! سيقتلونهم! أرجوكم!!".

أخذ أحد رجال الإنتربول هاتف فاروق بيك من جُثّته، بينما كانت علامات الفزع تظهر على ملامحه وهو يحاول الاتصال بالرقم. لم يلبث أن فشل، وعاد التوتر إليّ. كل ما شعرت به هو انهيار داخلي؛ هل سأعيش لأرى عائلتي مرة أخرى؟ أين هم الآن؟ ماذا سيحدث لهم؟! كنت أصرخ ولا أعي كلامي، وكل لحظة كانت تشعرني وكأن الأرض تبتلِعني.

وفي تلك اللحظة، عبرت مجموعة أخرى من رجال الإنتربول، توجهوا مباشرة إلى الكثبان الرملية حيث كان "القدم الذهبية"، الرجل الذي يبدو أنه كان في حالة من الهذيان، يردد بجنون:

- "هذه لعنة أبي الهول... هذه لعنة أبي الهول...".

بينما كنت أراقب المشهد، فجأة ظهر "عين الذئب"، يتزحلق بخفة من على ظهر أبو الهول، متجها نحو رجال الإنتربول. كان يخطو بحذر، وكأن الأرض نفسها كانت ترفعه ثم بدأ يتكلم معهم بصوت منخفض ورزين، وكأن هناك بينه وبينهم معرفة قديمة. لا أدري كيف، لكنني شعرت أنه كان له دور أكبر من مجرد وجوده في تلك اللحظة. ثم توجه نحوي، وبعينين كحيلتين، وبابتسامة مرعبة، وضع يده على كتفي وقال لي بِنَبرَة مطمئنة، في الوقت الذي كان فيه كل شيء حولي ينهار:

- "أخبرني يا عمران، أين يقع منزلكم؟".

صوتي خانني، وقلبي تكسّر من الخوف، وكأن الأرض قد سحقَتني. بالكاد استطعت أن أتمتم:

- "في شارع... في شارع... الحيّ القديم...".

لم أتمكن من قول المزيد. الضغوط التي مررت بها، وطريقة موت فاروق بيك، وبداية انهيار أكبر عصابة في العالم السفلي، وتهديد حياة عائلتي... كان كل شيء أكبر من قدرتي على التحمل. شعرت أنني كنت على شفا الجنون، وكل شيء حولي كان ينهار بلا رحمة.

أخذوني بعد ذلك، ووضعوني في سيارة الشرطة، وكان أحدهم يحقنني بشيء لم أتمكن من فهمه في البداية. كانت إبرة غريبة، حتى أصابني الدوار، وبدأت كل أطرافي تفقد قدرتها على التحكم، ثم فقدت الوعي فجأة.

استيقظت في اليوم التالي، شعرت بألم يقطع رأسي. لم أكن قادرًا على فتح عيني بشكل جيد، وعندما فعلت، كان كل شيء محاطًا بضباب، وكان عقلي لا يزال في حالة من الارتباك. رفعت رأسي ببطء شديد، ثم سحبت نفسي إلى الجهة الأخرى لأجد أمامي قضبانًا حديدية ضخمة. أدركت حينها أنني في السجن، لكن في أي سجن؟ لا أدري. فقط شعرت بضيق المكان وكأنني في غرفة محاصرة، وأنا محاط بأشباح من الماضي.

على الأرض أمامي، كانت هناك لفافة جريدة. التقطتها بكل ما تبقى لي من قوة، وبدأت أقرأ بتوتر، مُحاولا حل الألغاز التي كانت تطارد عقلي. وعندما قرأت العنوان في الصفحة الأولى، شعرت كما لو أن ضربات الصاعقة قد أصابتني:

- "إحباط أكبر عملية سرقة في القرن الواحد والعشرين على يد قوات الإنتربول...".

في تلك اللحظة، انقضّ فضولي لأعرف ما حدث أثناء غيابي. أكملت قراءة المقال بخوف واهتمام:

- "تمكنت قوات الإنتربول من إحباط أكبر عملية سرقة.. واندلاع نيران في القرن الواحد والعشرين، والتي أُطلق عليها (سرقة القرن). تمكنت الشرطة من القبض على أفراد من عصابة تُسمى إخناتون، وتم تصفية رئيس العصابة الملقب بـ(فاروق حورس)، الذي كان معروفًا بأنه يتاجر بالعقارات، لكن تبين أنه كان يترأس شبكة من العصابات، ويُلقب بـ(ظلّ العالم السفلي). كما تم القبض على ثلاثة من أهم قادة العصابة: المجرم -إلياس حورس، المجرم ياسين مروان، المعروف بلقب (القدم الذهبية) أمّا المجرم الثالث تحفظّتِ الإنتربول عن إفصاح هويته لأسباب غامضة.

قرأت الكلمات، لكن لم يكن هناك أي ذكر لعائلتي. شعرت بنوبة من القلق، بدأ قلبي ينبض بشكل غير طبيعي. رفعت نظري لأجد أربعة من رجال الشرطة يقفون أمام زنزانتي، يراقبونني بعينين باردتين. لم أتمالك نفسي، وسألتهم بصوت مرتفع، مضطرب:

- "من فضلكم! هل يمكنني فقط أن أطمئن على عائلتي؟ بعد ذلك، افعلوا بي ما شئتم، لكنني أحتاج فقط لمعرفة إذا كانوا بخير...".

لم يرد علي أحد، كل ما رأيته كان نظرات شفقة. وفجأة، تَفتح بوابة حديدية بعيدة، ليظهر رجل يرتدي ملابس سوداء بالكامل، مع سلاح على خصره وبندقية قنص على ظهره. خلفه، كانت مجموعة من النساء والرجال. كنت لا أستطيع تمييز ملامحه بسبب البعد، ولكن ما أن اقترب حتى رأيت رجال الشرطة الأربعة يُحيونه تحية عسكرية في الوقت نفسه.

في تلك اللحظة، جمعت شتات نفسي ومسحت يدي على وجهي، متخيلًا أنه ربما كان هناك أمل. اقترب مني الرجل، وكانت ملامحه تصبح أكثر وضوحًا. حينما اقتربت عيناي من ملامحه، صُدمت. كان هو نفسه، "عين الذئب". كان يقف أمام زنزانتي بابتسامة باردة ومخيفة، وبينما كانت أنيابه الظاهرة تزيد من رهبة الموقف، أدركت أنه ليس مجرد جندي، بل هو شخص ذو رتبة عالية في الإنتربول.

في تلك اللحظة، شعرت أنني دخلت في حالة من السكون. وهو قال لي بصوت هادئ، مطمئن، لكن داخلي كان يغلي:

- "كيف حالك يا عمران؟ أتمنى أن تكون بخير الآن...".

تركت الكلام في فمي، وتدفقت الدّموع من عيني فجأة. لم أستطع الإجابة إلا بعد لحظات من الصمت:

- "أنا بخير، ولكن.. أريد أن...".

وقبل أن أكمل، قاطعني قائلًا بهدوء قاسٍ:

- "أنت تريد أن تطمئن على عائلتك، أليس كذلك؟".

بدأت الدموع تتساقط من عيني، وأجبت بصوت ضعيف، متألمًا:

- "نعم، صحيح...".

صمت "عين الذئب" لوهلة، وجمَدت ملامحه ليَغمره نوع من البرود القاتل. لم يرد على سؤالي، بل اكتفى بإخراج نفس العلبة المعدنية التي أخرجها في الاجتماع السابق، وفتحها ببطء وكأنه يستعرض لحظة في فيلم قديم. أخرج منها سيجارة فخمة، تميزت برائحتها الثقيلة التي ملأت المكان بسرعة. اشعل السيجارة وأخذ نفسًا عميقًا منها، ثم نظر إليّ بعيون باردة وقال، دون أي تعبير يذكر:

- "يؤسفني ما حدث لهم يا عمران. ادعُ لهم بالرّحمة".

صوت الكلمات كان باردًا جدًا لدرجة أنني شعرت وكأنها أشواك تدمي قلبي. لم أتمالك نفسي، فانهارت دموعي دفعة واحدة، وانفجرت مشاعري المتناقضة في لحظة واحدة. شعرت بالغضب من نفسي، من كوني السبب في هذه النهاية المأساوية لعائلتي. كيف أوصلتهم إلى هذا المصير المظلم؟ كان الشعور بالغضب عارمًا، وكأنني لا أستحق أن أعيش بعد ما فعلته بهم. أما الحزن، فكان يشل كياني، وكانت كل نبضة قلب تذكرني بفقدانهم. شعرت بالغدر في كل عظمة من عظامي. كان شعورًا مريرًا كالحسرة تلاحقني في كل مكان. هذا كله كان بسبب طمعي، في لحظة استهترت فيها بحياتهم وبمستقبلهم. كيف يمكن أن تكون الحياة بهذا القسوة؟!

بينما كنت غارقًا في حزني، وجدت "عين الذئب" يمد يده عبر القضبان الحديدية، ويدخلها برفق ليمسح على ظهري. كان يفعل ذلك بطريقة غريبة، وكأن يده التي تلمسني هي أقوى من كل شيء حولي، وكأنها تخرجني من دوامة مشاعري المتناقضة. قال بصوت هادئ، وهو يحاول التخفيف من وطأة الألم:

- "هذا قضاء الله، لا يد لك فيه...".

لكن كلماته لم تخفف من حزني، بل زادت من ألمي. لم أستطع تحمل ذلك. فصرخت بكل ما فيّ، ودموعي تتساقط بغزارة، وبدأت أضرب رأسي على القضبان الحديدية في لحظة من الجنون، وأنا أردد بين شهقاتي:

- "بل أنا السبب! طمعي هو السبب! لو أنني رضيت بالقليل... لو أنني لم أدخل مع المجرم فاروق في عمله... لكانت... لكانت عائلتي الآن على قيد الحياة...".

كنت أصرخ وأنا أشعر وكأن قلبي ينفجر، لا أستطيع التحمل بعد كل هذا الذي جلبتُه على نفسي وعلى من أحببت. فجأة، وكأن العالم قد توقف لحظة، اقترب "عين الذئب" مني، وبقوة مفاجئة، أمسك برأسي وصفعني على وجهي صفعة جعلتني أشعر وكأنني فقدت الوعي للحظات. كنت مذهولًا من قوتها، ومن غضبه الذي كان يتصاعد كما لو كان البركان على وشك الانفجار. كان يصرخ في وجهي، وعيناه تحترقان بالغضب، وجبينه مُغطى بغضب لم أعرفه من قبل:

- "تمالك نفسك! لا وقت للنّحيب مثل الأطفال! كن رجلًا وتمالك نفسك!".

يديه كانت مشدودة حول رأسي، وعيناه تنظران إليّ وكأنهما تريدان تمزيقي. شعرت أنني جُرحت ليس فقط جسديًا بل داخليًا. وضعت يدي على خدي، ولم أستطع حتى أن أستوعب ما حدث. لماذا كان كل هذا الغضب؟ لماذا كان يصر هذا الرجل على أن يُظهر لي كل هذا الاهتمام؟ كنت مندهشًا، محطّمًا، ولا أفهم شيئًا.

ثم أخذ "عين الذئب" نفسًا عميقًا من سيجارته، وكأن الوقت قد توقف لحظة. وكان صوته هادئًا جدًا وهو يتحدث، وكأن هناك شيئا مختلفًا في نبرته:

- "اسمعني جيدًا يا عمران. لقد أخبرت القيادة العليا بشأنك، وبوضعك، وأخبرتهم أنك تعاونت معنا، وساهمت في القبض على أفراد العصابة. أخبرتهم أيضًا أنك ستتعاون معنا بشكل كامل، وتُقدم لنا المعلومات اللازمة للقضاء على بقية شبكة العصابات. وقد اتخذت القيادة العليا قرارًا بتخفيف مدة محكوميتك، وسوف تصبح سنتين فقط...".

كان حديثه هادئًا، لكنه كان يحمل في طيّاته الكثير من الأبعاد. أغمضت عيني لبعض اللحظات، ثم تابعت الاستماع إليه، مدهوشًا.

- "وخلال هذه السنتين، سوف تخضع لتدريبات قاسية على يدي، وتصبح أحد مساعديّ. أفهمت؟".

لم أستطع التصديق، فقد كنت في دوامة من الأفكار المتضاربة. ماذا يعني كل هذا؟ كان "عين الذئب" يعلن لي عن مستقبلي بشكل مفاجئ، وكأن كل شيء قد تغير فجأة.

رغم كل ذلك، رمى السيجارة على الأرض، ثم غادر المكان وهو يفتح الباب الحديدي، غاضبًا. لكنني بقيت مكاني، شعرت بشيء غريب في داخلي، شيء يشبه الأمل. في تلك اللحظة، أدركت أن هذا الرجل قد منحني فرصة جديدة، فرصة للبداية من جديد. كانت عيونه تحمل شيئًا من الثقة فيّ، شيئًا لم يكن لديّ من قبل.

وقفت، وأنا أضع يدي على قلبي، قطعت وعدًا على نفسي. لن أخيِّبَ أبدًا الشخصَ الوحيد الذي منحني الأمل في هذا العالم المعتم. قرَّرتُ أن أسخّر حياتي لأصبح الشخصَ الذي يثقُ فيه، وأكون تحت أمره. "عين الذئب" قد منحني الطريق، ولم أكن أستطيع أن أضيعه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش
بعد عامين

مرّت سنتان من التّدريب المكثف تحت إشراف "عين الذئب"، ومرّت الأيام بسرعة، لكن مع كل لحظة كنت أتعلم فيها شيئًا جديدًا، شيئًا غريبًا وملهمًا. لم يكن هذا الرجلُ مجرد ضابط عسكري عادي، بل كان رجلًا روحانيًا من الطراز الرفيع. علمت منه الكثير من الدروس التي غيّرت مسار حياتي بالكامل. فقد علمتني القدرة على التحكم في النفس، وتعليماتي كانت تشمل كيف أكون أكثر صبرًا، وأتحكّم بمشاعري بشكل كامل، مهما كانت الضغوطات. كان عين الذئب يعلمنا كيف نتنقل بين الظلال، كيف نقرأ الأشخاص من خلال تصرفاتهم الصغيرة، وكيف نتوقع الأحداث قبل وقوعها. كنا نتدرب على قدرات بدنية وعقلية قوية، لكن كانت هناك جوانب أخرى ذات طابعٍ روحانيٍّ عميق.

علمتني تقنيات التنفس العميق التي تساعد على تهدئة العقل والروح في أصعب اللحظات، والتأمّل الذي يمكنه أن يمنحني توازنًا داخليًا وسط الفوضى. كما زوَّدني بفَهمٍ عميقٍ للوجود والتواجد، وكيفية التعامل مع القوة الداخلية التي تكمُنُ داخل كلّ شخصٍ منّا. لقد غيرت هذه الدروس حياتي تمامًا؛ أصبحتُ قادرًا على فهم الأشياء بشكل أعمق وأقل عرضة للانفجار العاطفي.

أكثر ما أدهشني كان قوة ونفوذ "عين الذئب" داخل جهاز الإنتربول. تبين لي لاحقًا أنه كان يتمتعُ بعلاقاتٍ قويةٍ للغاية مع العديد

من الشخصيات الكبرى داخل الجهاز، وأصبح جزءًا من مجموعةٍ سريةٍ خاصة، لم يكن حتى زملاؤه في الإنتربول على عِلم بها. كان "عين الذئب" يترأس وحدةً خاصة تقوم بتنفيذ مَهامٍ غامضةٍ وغير معلنة، وكان هذا القسم يعمل بعيدًا عن أعين باقي الوحدات داخل الجهاز. لم يكن أحد يعرف عنه الكثير، بل حتى "عين الذئب" نفسه كان رجلًا مغطًّى بالغموض، لدرجة أن اسمه الحقيقي وعمره كان محجوبًا في النظام، ولم يكن أحد قادرًا على معرفة المزيد عنه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

عندما انتهت مدة محكوميتي، وخرجت من السجن، كان أول شيءٍ فعلته هو التوجُّه إلى قبرِ عائلتي. جلست أمام قبورهم، وقرأت لهم بعض آيات القرآن الكريم. شعرت بعزلةٍ وحزنٍ عميقين، لكنني كنتُ في ذات الوقت مدفوعًا بعهدٍ قد قطعته على نفسي. نظرت إلى القبور وتذكرت اللحظات التي فقدتهم فيها، فقلت في نفسي: "لن أسمحَ للأشرار وأصحاب العصابات أن يهنَؤوا بعيشهم، لن يكونوا في أمان طالما أنني على قيد الحياة... سأكون أول من يقبض عليهم". شعرت بشيء من الانتقام يشتعل في صدري، وقلت بصوتٍ حاسم: "سأبدأ من مسقط رأسي، القاهرة، حيثُ كلُّ شيءٍ بدأ".

كانت تلك اللحظة فارِقةً في حياتي. بدأتُ أفكّر في كيفيّة الاستفادة من مهاراتي الجديدة، واستخدام قوتي التي اكتسبتُها لِلانتقام من أولئك الذين دمّروا حياتي وحياة من أحببت. ولم يكن هناك شيء يقف أمامي الآن، لا ماضٍ ولا خوف.

(النّهاية)

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

(غير الأمس)

كانتْ المقبرةُ هادئة، الصمت يلفُّ المكان إلّا من صوتِ الرياحِ التي تمرُّ بين القبور، وكأنّ الأرواح تهمس بينها في الخفاء. كنتُ أقفُ أمام قبر عائلتي، أفكر في الماضي وما آل إليه حاضري، عندما شعرتُ فجأةً بحركةٍ خَلفي... شعور غريزي، تحذير غامض، جعل الدماء تتجمد في عروقي لثوانٍ. التفت بسرعة، وعيناي الحادتين التقطتا المشهد فورًا.

أمام عينَي، وقفت امرأة مُلثمة بلثام أسود، عيناها الزرقاوان تشعان بالحقد والغضب، ومسدسها مصوب نحو رأسي بثبات قاتل. خلفها، أربعة رجال يرتدون السواد بالكامل، يقفون بصمت مخيف، أجسادهم مهيَّأة للقتل في أيّ لحظة.

ثم، بصوتٍ مبحوحٍ مشبّعٍ بالكراهية، نطقت المرأة قائلة:

- "أتظنُّ أنّك ستنجو بفعلتك يا عمران؟!".

تجمدت للحظة، ليس خوفًا، بل بسبب شيءٍ آخر... صوتها كان مألوفًا! لكنني لم أتمكن من تذكره على الفور. وفجأة، نزعتِ اللثامَ عن وجهِها، لتنكشف ملامحها التي لم أنسَها أبدًا، كانت "أولافيرا".

نظرتها كانت مليئة بالانتقام، بريق عينيها لم يكن سوى ألسنة نيران تحترق بالحقد، ثم بصقت كلماتها بغضب:

- "أنتَ الذي خُنتنا! ساعدتَ عين الذئب في جمع المعلومات عنا، ونصبتم لنا هذا الفخ الحقير!".

لم أجبها. فقط، أغمضتُ عيني وأخذت نفسًا عميقًا، مستذكرًا تدريباتي مع عين الذئب. لم أكن الشخص الذي كنته قبل عامين، بل أصبحت الآن أكثر قوة، أكثر دهاءً. كنت أعلم أنني لن أخرج من هنا إلا إذا تحركت بسرعة البرق.

بهدوء، وضعت يدي على حذائي حيث خبّأت مسدسًا صغيرًا تحسُّبًا لمثلِ هذه اللحظات.. ثم فتحتُ عيني ببطء، ونظرت إلى أعينهم جميعًا، رأيت فيها ثقتهم بأنهم سيقتلونني هنا، عند قبور من أحببت.

ابتسمتُ ابتسامة باردة وقلت:

- "يبدو أنكم أتيتم إلى قبوركم بأقدامكم!!".

تقلّبتُ للخلف بسرعة خاطفة، ورأسي يقترب من الأرض، بينما كانت يداي تتحركان بسلاسة قاتلة. أخرجت المسدس وأطلقت طلقتين متتاليتين نحو أولافيرا، الأولى أصابتها في كتفها، جعلتها تتراجع، والثانية اخترقت صدر أحد الرجال خلفها، ليسقط على الفور...

قبل أن يستوعب الآخرون ما حدث، كنت قد تدحرجت على الأرض وأطلقت ثلاث طلقات أخرى، كل رصاصة وجدت هدفها

بدقة قاتلة. اثنان منهم سقطا فورًا، أما الرابع، فحاول التصويب عليّ، لكنه كان أبطأ من أن يَسبقني -رصاصتي أصابت رأسه قبل أن يتمكن من الضغط على الزناد.

في أقل من خمس ثوانٍ، كانت أربع جُثث مُلقاة على الأرض... وواحدة فقط لا تزال تتنفس بصعوبة.

كانت أولافيرا، مستلقية على الأرض، عيناها مليئتان بالدموع، والألم يمزّق ملامحها.

اقتربت منها، مسحت الغبار عن ملابسي، وانحنيت عند رأسها. كانت تبكي، لكن ليس بسبب الألم، بل بسبب الهزيمة.

بصوتٍ بارد خالٍ من الرحمة، قلت:

- "أخبريني عن بقية أفراد العصابة المُختبئين".

نظرت إليّ بعينين ملؤهما الكراهية، ثم بصقت الدماء من فمها وقالت بصوت مليء بالغضب:

- "سوف تجدهم بجانب أمك!!".

تجمّدت للحظة.

كان ذلك كافيًا ليجعل الدماء تغلي في عروقي، لم أستطع تحمل كلمتها الأخيرة. وبدون أي تفكير، رفعتُ المسدس وضغطت على الزناد.

طلقةٌ واحدة، وصمتٌ أبدي.

انفجر رأسُها على الأرض، وانتهى كلّ شيء بالنسبة لها.

وقفت، وأخذت نفسًا عميقًا، نظرت إلى جثتها لثوانٍ، ثم أدرت ظهري، وكنت أعلم أنني لن أتوقف هنا.

بل كنت قد بدأت للتو.

لقد بدأت الحرب الآن... والعالم السّفلي بأكمله سيَحترق تحت قدميّ.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش